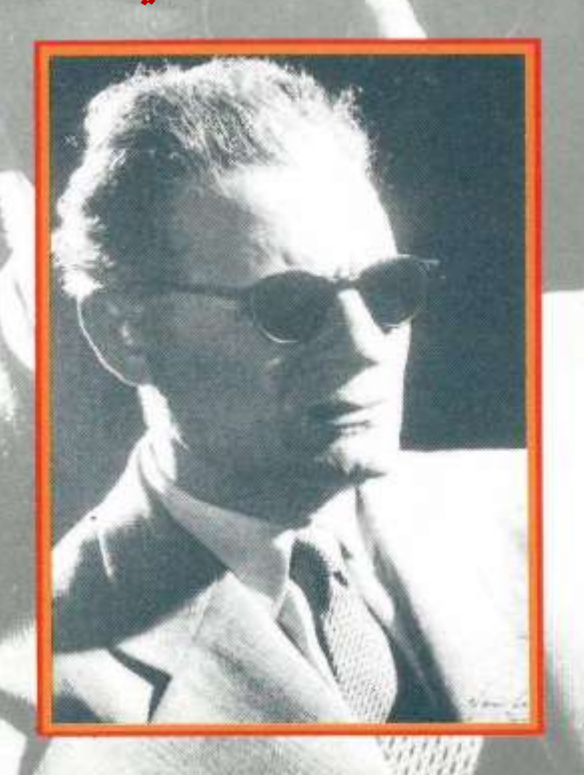
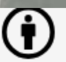
دراسات

د. توفيق أبو الرب

محاورات طه حسين

الجزء الثاني





منشورات وزارة الثقافة

PUBLICATIONS OF THE MINISTRY OF CULTURE

DIALOGUES OF TAHA HUSSEIN

By

Dr. Tawfiq Abul Rub

THE HASHEMITE KINGDOM OF JORDAN
AMMAN 1994

تنبيه

. رقم الكتاب الدولي
(ISBN): 978-3-1529-1760-0




First Edition

P.O.Box 6140 - Tel 696218, 696588, 697687, 697359 Fax. 696598

AMMAN - The Hashemite Kingdom Of Jordan

رقم التصنيف: ٩٠٩ر٨١٠
المؤلف ومن هو في حكمه: د. توفيق أبو الرُّب
عنوان المصنّف: محاورات طه حسين
رؤوس الموضوعات: ١- الأدب العربي - دراسة ونقد
٢-
رقم الإيـــــداع: (١٣٥٣/١٢/١٩٩٤)
الملاحظــات: عمان: منشوات وزارة الثقافة
☆ تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية
(١٣٥٣ / ١٢ / ١٩٩٤)

☆ الصف الضوئي: قسم الكمبيوتر. الإخراج: محمد غازي يعقوب قسم الكمبيوتر / وزارة الثقافة ☆ عدد النسخ (٢٠٠٠) نسخة. ☆ الطباعة : مطابع الرأي

منشورات وزارة الثقافـــــة

محاورات طه حسين

الجزء الثاني

أ.د توفيق أبو الرب (رحمه الله)

المملكة الأردنية الهاشمية - عمان ١٩٩٤

☆ محاورات طه حسين
☆ تأليف: د. توفيق أبو الرُّب
☆ الطبعة الأولى
☆ سنة الطبع ١٩٩٤

الناشر: وزارة الثقافة
عمان / الأردن
شارع وصفي التل
ص.ب ٦١٤٠
هاتف: ٦٩٦٢١٨، ٦٩٦٥٨٨، ٦٩٧٦٨٧، ٦٩٧٣٥٩
فاكس: ٦٩٦٥٩٨

« إنك يا طـه حسين، ضعيف الخيال، عاجز عن الابداع الادبي، واني أصبحت مستيقناً أن الله تعالى لم يهبك قلم الكاتب، ولا أودعك دهاء السياسي، ولا خصك بفهم الحكيم...»

«مصطفى صادق الرافعي»
«تحت راية القرآن»

«إيهِ طـه حسين ! ... أيّ ضمان انت في الشرق لحياة الفكر والبيان ؟ إنك لاتلمس شيئاً حتى ينقلب الى حق، حق كبير، يبتلع كل رأي، يلقف كل حجة، تلك عصا الاستاذية، ماكنت أجهل انك حاملها في هذا العصر ! ...»

«توفيق الحكيم»
مجلة الرسالة ١٩٣٣

«... أسلوب طـه حسين غير كتابي، وانما هو أسلوب خطابي، وهو مع هذا يفتقر الى مزايا الخطابة افتقاره الى مزايا الكتابة، وأظهر عيوبه التكرار والحشو، وما هو منهما بسبيل ...»

«ابراهيم المازني»
«قبض الريح»

«... أسلوب طـه حسين هو أول أسلوب من نوعه في الأدب العربي، ليس فيه محاكاة لأسلوب آخر في اللغات الأوروبية، قد استقل بابتداعه طـه حسين، ولو غضب المنكرون ...»

«عباس العقاد»

مجلة الهلال ١٩٣٥

«... أدب الملوك والأمراء، والباشوات هو هذا الأدب، الذي يدعو اليه الدكتور طـه حسين ...»

«سلامه موسى»

«الأدب للشعب»

«... طـه حسين استطاع بشخصيته وثقافته وبما كتبه أن يضع أمامنا الهدف، الذي يصح أن نتجه إليه، وهو أن ننسج حياة عربية، يكون فيها القيم المحلية، القومية والدينية ويكون فيها القدرة العقلية، التي تصلح لحياة هذا العصر ...»

«د. زكي نجيب محمود»

جريدة الرأي ـ ١٩٩٣

«... طه حسين متخلف الفهم في العربية، مضطرب الفكر والمنطق»

«محمود محمد شاكر»

« المتنبي »

«... لقد ظهر في العصر الحديث مفكرون عرب كبار وأعظمهم في رايي هو طه حسين»

«محمد حسنين هيكل»

جريدة الرأي . ١٩٩٢

«ألا ترى أني ساقط بين كرسيين، كما يقول الفرنسيون، فأنا في الغرب متهم بالتعصب للاسلام، وأنا في الشرق متهم بالمروق منه ...»

« طه حسين »

« نقد واصلاح »

كلمة الناشر

ليس من شك في أن طه حسين كان ظاهرة في تاريخ الأدب العربي الحديث، بآرائه، وأسلوبه، ولغته، ومنهجه. وكثير من الناس مازال يقيس أهمية الأديب أو المفكر بما يثيره نتاجه من حوارات وردود أفعال، ومناقشات، سواء في ذلك من يتفق معه أو من يختلف. ولقد أثار طه حسين حوله كثيراً من تلك الحوارات، والمناقشات، بل والمعارك الفكرية والأدبية في حياته، ومازال هذا الخلاف حوله مستمراً بعد وفاته، ومن المؤكد انه سيستمر في المستقبل ايضاً.

وحوارات طه حسين مع خصومه، أو محاوريه، تدل على انه كان يصدر عن اقتناعات محددة تبلورت عنده نتيجة ثقافته وتنوع مصادر معرفته، التي بدأت بدراسة القرآن وعلوم الدين صغيراً على ايدي شيوخ الأزهر، ولم تنته في باريس حين حاز على الدكتوراه من جامعة السوربون، بل استمرت بعد ذلك في النماء والثراء مستفيداً من نتاج الحضارات والعقول والثقافات الإنسانية المختلفة.

وتفرّد طه حسين، يتضح من خلال محاوراته مع اتجاهات مختلفة ومتناقضة ايضاً، فالذين اختلفوا مع طه حسين لم يكونوا نتاج اتجاه محدد أو وجهة نظر واحدة، بل كانوا مذاهب شتّى، وأفكاراً متباينة.

لقد اجتهد المؤلف في محاولته عرض حوارات طه حسين مع مجموعة من مفكري عصره وأدبائه، وربما حاول أن يدعّم من موقف طه حسين، ويسند وجهات نظره في مواجهة خصومه، وربما حاول أيضاً أن يدافع عن طه حسين في

وجه محاولات هؤلاء الخصوم الرد عليه، إلا أن كل هذا لا يمنع من أن نتفق معه أو نختلف. كما اتفق الناس أو اختلفوا مع طه حسين نفسه

ولسنا بالضرورة - بوصفنا ناشرين لهذا الكتاب - متفقين مع ما جاء فيه من آراء، لكننا بالتأكيد مع الجهد الدؤوب، والنتاج الجيد، الذي يستثير الفكر، ويؤدي إلى الحوار الجاد، والموضوعي وصولاً إلى الحقيقة التي لا نشك أنها هدف كل باحث ودارس.

المحتويات

محاورات طه حسين
(الجزء الاول)

الصفحة

☆ رأي طه حسين في الحوار النقدي ١٧

☆ محاورة الرافعي ٢٣
١ . رسالة العتب وبداية الحوار ٢٥
٢ . خطأ العريان ومغالطة الرافعي ٣٢
٣ . رسائل الاحزان والمحاورة الثانية ٤١
٤ . سر الخصومة بينهما ٥٤
٥ . موقف الرافعي في أزمة الشعر الجاهلي وعلاقته بالسياسة ٥٧

☆ محاورة العقاد ٦٧
١ . موقف العقاد في أزمة الشعر الجاهلي ٧٠
٢ . الناقد اللاتيني والناقد السكسوني ٧٢
٣ . رجعة أبي العلاء ٧٥
٤ . ابو نواس ومنهج التحليل النفسي ٧٩
٥ . لماذا لم تقع الخصومة بينهما ؟ ٨٤

الصفحـة

☆ محاورة سلامة موسى ٩٥
١ . الخلاف حول الادب العربي القديم والمعاصر ٩٧
٢ . ادب الملوك وادب الشعب ١٠٢
٣ . التباين بن شخصيتي طه وسلامة ١١١

☆ محاورة المازني ١١٥

محاورات طه حسين
(الجزء الثاني)

☆ محاورة توفيق الحكيم ١٢٩

☆ محاورة محمود امين العالم وعبد العظيم أنيس ١٤٧

☆ محاوراته الاخرى ١٦٣
١ . محاورة احمد أمين ١٦٥
٢ . محاورة محمد الخضري ١٦٩
٣ . محاورة زكي مبارك ١٧٣
٤ . محاورة محمود محمد شاكر ١٨٧
٥ . التاريخ بين طه حسين ورفيق العظم ١٩٩
٦ . محاورات طه حول كتاب مستقبل الثقافة في مصر ٢٠٣
١- رأي طه حسين في الأزهر ٢١٧
٢- طه حسين واللغة العربية ٢٢٣

الصفحة

☆ رأي زكي نجيب محمود في طه حسين ٢٣٥

☆ أهمية المحاورات ٢٣٩

☆ قائمة للمصادر والمراجع ٢٤٣

«.. لم يخطر لي قط على بال أن اختلاف الرأي في مسألة من المسائل العلمية أو الأدبية أو السياسية يمكن أن يسوء أحداً من المختلفين، ولو عرفت ذلك لما اذعت في الصحف حرفاً واحداً منذ أخذت التحدث الى الناس فيها ..».

طـه حسين ١٩٣٧

محاورة توفيق الحكيم

بدأت العلاقة الادبية بين طه حسين وتوفيق الحكيم في عام ١٩٣٣، وذلك حين قدم الدكتور محمد كامل حسين وحسين محمود لطه حسين مسرحية «أهل الكهف» وطلبا منه ابداء رأيه النقدي فيها[(١)]، فلما قرأها - وكان لايعرف الحكيم ولايسمع به - اعجب بها أيّما اعجاب، ثم نشر مقالة في مجلة «الرسالة» يثني عليها ويعدها عملا رائدا في الادب العربي، وفتحا جديدا[(٢)]، فما كان من توفيق الحكيم الا ان ارسل اليه برقية شكر من مدينة دمنهور، حيث كان يعمل في النيابة هناك[(٣)]، فكان هذا اول ما قاد المعرفة والصداقة بينهما، يقول طه حسين مصورا وقع نقده على الحكيم، واندفاعه في شكره وتقديره: «.. واذا الاستاذ توفيق الحكيم قد سعى اليّ من اقليمه الذي كان يعمل فيه، وهو يشكر لي تشجيعي له، ويغلو في هذا الشكر، ثم يلقي اموره الادبية كلها اليّ، ويطلب مني ان اكون له مرشدا وحاميا، فاقبل منه هذا كله سعيدا به، مبتهجا له»[(٤)].

على ان الحال بينهما لم تبق على هذا النحو من المودة طويلا؛ اذ مالبث الحكيم ان نشر مسرحية «شهرزاد»، فقام طه حسين بنقدها

(١) طه حسين يتحدث عن أعلام عصره: ٣٢ .

(٢) انظر مقالته النقدية في مسرحية اهل الكهف، مجلة الرسالة: ٣٧ - ٣٩، العدد (٩) ١٥ مايو ١٩٣٣ .

(٣) طه حسين يتحدث عن أعلام عصره: ٣٢ .

(٤) الأديب الحائر، مجلة الرسالة: ١٠٦٤، عدد (٥١) - ١٩٣٤ .

ونوه بموهبة الحكيم وبراعته الفنية فيها، ومع ان المآخذ التي اخذها على المسرحية لا تكاد تذكر بالقياس الى ثنائه عليها، فقد كانت المفاجأة ان النقد لم يعجب الحكيم، ولذا ارسل الى طه حسين رسالة شخصية في عام١٩٣٤، اعرب فيها عن غضبه من النقد لان طه حسين نصح له في أثنائه بان يقرأ المزيد من كتب الفلسفة، كذلك قرر ان التمثيلية لا تلائم الملعب المصري[1]. ومع انه طلب ان يظل امر الرسالة سرا، فان طه حسين الذي استاء جدا منها، لم يتردد في نشرها، خلال مقال غاضب نشره في مجلة الرسالة بعنوان «الاديب الحائر»، حكى فيه باسلوب مسرحي قصة علاقته بالحكيم من بدايتها الى منتهاها[2].

ويلاحظ ان الحكيم في رسالته التي رد بها على نقد طه حسين لمسرحية «شهرزاد» لم يرفض المآخذ التي اخذت عليها فحسب، وإنما رفض ايضا الاحكام النقدية التي تقرر ريادته المسرحية وتفوقه، وخلود تمثيله المتقن. فاذا كان طه قد ذهب في نقده الى ان الحكيم قد ادخل في الادب العربي فناً جديدا، لم يسبق احد قبله اليه، فقد رد الحكيم هذا الحكم النقدي بقوله: «.. هذا اسراف سبق لي ان اشرت اليه في خطاب مني اليك عن ادب الجاحظ، ذكرت فيه يومئذ ان للجاحظ ملكة في انشاء الحوار، تذكرنا ببعض كتاب المسرح من الغربيين فما انا اذن بمبتدع، وانما انا احد السائرين في

(١) انظر «فصول في الأدب والنقد»: ١١٥، و «طه حسين يتحدث عن اعلام عصره» ص٣٣ .
(٢) طه حسين، الأديب الحائر، مجلة الرسالة: ١٠٦٣، العدد (٥١)

طريق شقه الشرق من قبل»[1]... واذا كان طه حسين قد اعرب عن اعتقاده بانه سيكون لمسرحيات الحكيم حظ من البقاء الطويل فقد رد الحكيم هذا بقوله: «اما نصيب قصصي من البقاء فلست اعتقد ان لناقد معاصر حق الجزم به، وما بلغت من البساطة حد تصديق ناقد يتكلم في هذا، فان الزمن وحده هو الكفيل بالحكم للاعمال بالبقاء، فانا كما ترى لااسمح لنفسي بقبول مثل هذا الثناء»[2].

ومع ان الحكيم هو الذي طلب الى طه حسين ان يكون مرشده وموجهه، بل اقر بأنه تنازل له عن (حريته)، فما كان يتصرف في عمل ادبي بغير رأيه ولا استشاره أحد في أمر يتصل بكتبه الا أحال الامر عليه، وانتظر كلمته فيه[3] مع هذا كله فقد رد على تشجيعه إياه في نقد مسرحية شهرزاد، وعلى نصيحته له بان يقرأ مزيدا من كتب الفلسفه بقوله في حدة ظاهرة: «.. لست اسمح لأحد ان يخاطبني بلسان التشجيع، فما انا في حاجة الى ذلك، فاني منذ امد بعيد اعرف ما اصنع، .. كما اني لست في حاجة الى ان يملي علي ناقد قراءة بعينها، فاني منذ زمن طويل اعرف ماذا اقرأ، وما إخالك تجهل اني قرات في الفلسفة القديمة والحديثة وحدها، ما لايقل عمّا قرأت انت»[4].

(١) الاديب الحائر: ١٠٦٥

(٢) المصدر نفسه: ١٠٦٥

(٣) توفيق الحكيم، خصومة، مجلة الرسالة: ١٠٩٤، العدد (٢٥)، ٢يوليه – سنة ١٩٣٤.

(٤) طه حسين، الاديب الحائر: ١٠٦٥، من مجلة الرسالة

وقد عمد طه حسين الى المنطق في رد اقوال الحكيم السابقة اما قوله: إن ثمة من سبقه في الادب العربي الى التمثيل، مثل الجاحظ، الذي كانت له ملكة حوار، فقد ذهب طه الى انه كان قد نبّه الحكيم «الى ان الحوار شيء، والتمثيل شيء اخر، والى ان الكاتب يستطيع ان يكون محاورا مجيدا دون ان يبلغ من التمثيل شينا»[1]، وإذن فاتقان الجاحظ الحوار، وبراعته فيه لايعنيان انه عرف التمثيل، او ألمّ به او كان يمكن ان يخطر له التمثيل على بال»[2] ثم عرض طه حسين بجهل الحكيم الفرق بين الحوار والتمثيل، مشيرا في سخرية الى رده في رسالتة السابقة قائلا: إنه لمن المؤلم حقا ان احتاج الى ان اسوق مثل هذا الكلام الى كاتب اديب كتوفيق قرأ من آثار القدماء والمحدثين مثل ما قرأت على الاقل[3] واما انكار الحكيم الحكم لقصصه بالبقاء الطويل فقد رده طه بقوله: ان الناقد الادبي حر في الاعراب عما يتصور او يعتقد، واذن ليس من حق الحكيم ان يرد هذا الحكم سواء اكان صحيحا ام كان خطأ، واما رده الثناء عليه فليس هذا من حقه ايضا، لان الناقد يهمه العمل الادبي نفسه وليس شخص صاحبه، قال: «فليعلم (الحكيم) اني لم أهدِ الى شخصه ليرفضه او يقبله، وان شخصه لا يعنيني إلا قليلا منذ الان، وانما اهديت الثناء الى فنه، وما زلت اهديه اليه، ولن يستطيع هو ان يرده، وكنت احب له ان يفرق بين شخصه الفاني وفنه الباقي»[4].

(١) الأديب الحائر: ١٠٦٦

(٢) المصدر نفسه: ١٠٦٦ .

(٣) المصدر نفسه: ١٠٦٦

(٤) المصدر نفسه: ١٠٦٦

واما قول الحكيم (لااسمح) لاحد بان يخاطبني بلغة التشجيع، فقد سخر منه طه قائلاً: «إنه يحب ان يكون اذكى في حياته العملية من ان يشارك رئيس الوزارة في لغته، «فلا أسمح» هذه كلمة ... يملكها رئيس الوزراء القائم وحده»[1] وهنا ينبغي ان نلحظ أن طه حسين يعرّض ايضا برئيس الوزراء، الذي كان يميل الى الاستبداد في هذه الحقبة، وهو صدقي باشا، الذي قام بفصله من الجامعة[2]. واذن فالاديب ليس من حقه ان يرد تشجيع الناقد الادبي وان كان حرا في ان يقبلة او لا يقبله، كما ان الناقد حر في ان يشجع من يراه مجيدا من الناحية الابداعية، بل ان هذا من صميم واجبه، واما قوله: انه لايسمح لأحد بان يدله على ما يقرأ، وانه قرأ من كتب الفلسفة مثل ما قرا طه على الاقل فقد رده عليه بقوله: انه هو نفسه غير راض عما قرأ من كتب الفلسفة القديمة، والحديثة وانه يبذل المزيد من الجهد ليقرأ اكثر مما قرأ، وانه يسأل الله دائما ان يقيه شر الغرور[3]، واما قول الحكيم: انه لايحتاج الى اي ناقد، ليدله على ما ينقصه، ويلفته اليه، فينقضه ان للناقد الادبي الحق في ان يلفت الاديب الى ما ينقصه وما يحتاج اليه من الادوات اللازمة لفنه، كما ان للاديب في الوقت نفسه الحق في ان يتقبل ذلك او لايتقبله، فالناقد والاديب المنقود كلاهما حر في الأمر بقدر متساوٍ تماما[4].

(١) الأديب الحائر: ١٠٦٦ .
(٢) كان طه حسين في هذه الحقبة من عام ١٩٣٤ يصدر صحيفة (الوادي) ويعرض فيها بالنقد لسياسة الحكومة
(٣) طه حسين، الاديب الحائر، مجلة الرسالة: ١٠٦٦
(٤) المصدر نفسه: ١٠٦٦

وقد رد الحكيم بمقالة[1] اعرب فيه عن اسفه، لان طه حسين اصر على ان يجهر بخصومته له امام القراء، وان ينشر الرسالة الخاصة التي كان قد بعثها، على الرغم من وساطة الأصدقاء الا يفعل، ثم عمد الحكيم الى اسلوب رقيق مؤثر، ذهب فيه الى انه يقدّر طه حسين اعظم تقدير، ويعدّه العميد الرفيع المقام، والزعيم الجليل الشأن في الادب العربي الحديث، وانه لاينسى جميله النقدي الذي اسداه اليه؛ اذ القى الضوء على وجوده الادبي، غداة كتب عن مسرحية «اهل الكهف»، وذهب الى ان صلة الصداقة بينهما خالدة: «لانها صلة بين قلبين اجتمعا على حب الجمال الأعلى: جمال الفن والحقيقة»[2].. والطريف ان الحكيم قد علل انقلابه المفاجىء على طه حسين في الرسالة الخاصة، التي ارسلها بأنه عابث، قد قصد الى الهزل ليس غير، قال: «الدكتور لم يعرفني حق المعرفة، آراه ياخذ بعض تصرفاتي على سبيل الجد، حيث لا ينبغي ان تؤخذ على سبيل الجد»[3] وكما قال «فاته اني اجد لذة عقلية في معارضة منطقه السليم، وآرائه المستقيمة، دون ان احفل بالنتائج»[4].

وينبغي ملاحظة ان الحكيم قد حاول بهذا التعليل ان يدرأ التهمة التي حاول طه حسين ان يوجهها اليه في مقالته السابقة الغاضبة، وهي ان الحكيم الذي كان يعمل خلال هذه الحقبة في

(١) بعنوان «خصومة» انظر مجلة الرسالة: ١٠٩٣، العدد (٥٢).
(٢) المصدر نفسه: ١٠٩٤
(٣) المصدر نفسه: ١٠٩٤ .
(٤) المصدر نفسه: ١٠٩٤

وزارة المعارف انما انقلب فجاءة عليه؛ لانه - اي طه حسين - كان مفصولا من الجامعة، التي كانت تتبع وزارة المعارف، ولانه كان في مقالاته يناصب الحكومة عامة العداء، فهو قبل اسبوع من نقده لمسرحية شهرزاد كان قد هاجم وزارة المعارف مهاجمة عنيفة[1]. قال يجبهه بالتهمه:« الذين يعملون في وزارة المعارف لاينبغي ان تظهر الصلة بينهم وبيني؛ لان هذه الصلة خطرة حقا، وما رأيك في قوم يعملون في هذه الوزارة، ثم يتصلون برجل لايزال من يوم الى يوم ينال هذه الوزارة ورؤساءها بالنقد الشديد»[2] ثم لفت الحكيم الى ان جهره بالخصومة في صالحه، قال: «فسيعلم رؤساؤه منذ اليوم انه قد أساء الي عمداً، في غير ما يبيح الاساءة، وانه قطع ما بينه وبيني من صلة ... وأظن أن رؤساءه منذ اليوم الاول سيرفقون به، ويعطفون عليه، ويحسنون الرأي فيه»[3].

ونحسب ان هذا الظن هو الذي اثار غضب طه حسين، ودفعه الى الاصرار على نشر الرسالة الخاصة في تضاعيف مقالته السابقة، وقد شاعت هذه التهمه، والصقت بتوفيق الحكيم، حتى ان عباس محمود العقاد قد عاد اليها بعد ثمانية اعوام، وسبب ذلك ان طه حسين كان قد اهدى الى العقاد قصته «دعاء الكروان» التي نشرت في عام١٩٤١،فكتب العقاد عنها في مجلة الرسالة يقرّظها، ولكن الحكيم ذهب الى ان لهجة العقاد في مقالته، كانت تفتقر الى الرقة

(١) طه حسين، الاديب الحائر، مجلة الرسالة: ص١٠٦٦
(٢) المصدر نفسه: ١٠٦٦
(٣) المصدر نفسه: ١٠٦٦

المنتظرة[١]، فرد عليه العقاد مذكراً برسالته التي بعثها الى طه حسين إثر نقده لمسرحية شهرزاد، وانه قابل جميله بالتنكر له ارضاء لرؤسائه في وزارة المعارف، غير ان الحكيم رد على العقاد مصرا على ان ما حدث بينه وبين طه عام١٩٣٤ كان خصومة ادبية صرفة، قال «ولكن الدكتور طه اراد ان يقحم فيها عنصر السياسة، ليظهرني في صورة (يهوذا) ويظهر نفسه في صورة (المسيح) فاخترع تلك القصة اختراعا»[٢].

والحق اننا حين نتامل جيدا القضية، يظهر لنا ان الحكيم مظلوم فيها، وان طه حسين كان على خطأ في ظنه، فلو كان الحكيم قد قصد حقا الى ما توهّمه لما ارسل اليه رسالة خاصة، ولنشر الرسالة نفسها في صحيفة، ليشعر المسؤولين في وزارة المعارف بما فعل؛ بل لو كان هذا حقيقة مقصده لما وسط الاصدقاء بينهما، لاقناع طه بالعدول عن نشر الرسالة، والمقالة التي تجهر بالخصومة، ولاقناعه بان يظل الامر بينهما سرا، حتى يعرض على أستاذهما لطفي السيد، فيعيد الصفاء بينهما[٣]، ولما رد على مقالة طه الغاضبة بعد نشرها ردا رقيقا، ينطوي على كل تقدير واعجاب، فطه حسين عميد كلية الآداب، الذي فصله وزير المعارف، تلبية لرغبة رئيس الوزراء، هو ما زال في راي الحكيم المعلن «العميد الرفيع المقام والزعيم الجليل الشأن في ادبنا العربي الحديث»[٤]، والصلة

(١) انظر مقالة توفيق الحكيم – خصومات ادبية – مجلة الرسالة ص٥١٨ عدد (٤٦٢) مايو – سنة ١٩٤٢ .
(٢) المصدر نفسه: ٥١٨ .
(٣) توفيق الحكيم، خصومة: ١٠٩٣، مجلة الرسالة ٢يوليه – ١٩٣٤ .
(٤) المصدر نفسه: ١٠٩٤

بينهما لا يمكن ان تزول «لانها صلة بين قلبين اجتمعا على حب الجمال الاعلى: جمال الفن والحقيقة»[1]، والعبارة الاخيرة التي يختم بها الحكيم رده هي قوله لطه: «اليك الان ما تمت عزيمتي عليه، اذا احتفظت بغضبك عليّ فسأعرض عن كل حياة ادبية»[2] ونحسب ان طه حسين لم يوافق على عودة الصفاء بينه وبين الحكيم بعد رده الرقيق[3]، إلا حين تحقق من انه كان مخطئا في ماذهب اليه من ظن، وكانه حاول من خلال مقالته ان يكشف حقيقة موقفه، ويتحقق من شكه.

والحق ان موقف توفيق الحكيم في رده يتسق وموقفه السابق للخصومة، فقد كان ينظر الى طه حسين بوصفه استاذه، الذي يعجب به، ويركن الى ارآئه في الادب والفن والفكر، ولذا كان يسعى الى محاورته فيها، من خلال توجيه الرسائل الادبية اليه في الصحف، كرسالته الادبية التي نشرها في عام١٩٣٣ بعنوان «الى الدكتور طه حسين»[4]، وقد اظهر في بدايتها تأثره المعروف بدعوة لطفي السيد الى القومية المصرية، واللهجه العامية؛ اذ ذهب الى التفرقة بين الروح المصري والروح العربي، وقال: لابد لنا ان نعرف: ما المصري وما العربي؟ كما ذهب الى ان طابع العرب هو السرعة، والميل الى الزخرفة، «كل شيء عند العرب زخرف: الادب نثر وشعر لايقوم على البناء، فلا ملاحم ولاقصص ولاتمثيل، انما هو وشي

(١) خصومة: ١٠٩٤ .
(٢) المصدر نفسه: ١٠٩٥ .
(٣) انظر المصدر نفسه: ١٠٩٥
(٤) نشرت في مجلة الرسالة: العدد (١٠) ص٥-٨ أول يونيه ١٩٣٣

مرصع جميل»[1] ولاحظ ان العرب لا طاقة لهم بالفن الرمزي ولايريدون إلا التعبير المباشر بغير الرموز وإلا الصله المباشرة بالحس»[2] وان عقليتهم لاتشعر بالوحدة الفنية في العمل الادبي او الفني، لانها تنشد اللذة السريعة، «إذ يكفيها بيت شعر واحد، او حكمة واحدة او لفظ واحد، او زخرف واحد لتمتلىء طربا واعجابا»[3] واما الحضارة العربية كلها فمن المستحيل ان نرى فيها «أي ميل لشؤون الروح والفكر بالمعنى الذي تفهمه مصر والهند من كلمتي: الروح والفكر»[4]، واذن فمصر في رأي الحكيم والعرب هما طرفا نقيض: «مصر هي الروح، هي السكون، هي الاستقرار، هي البناء، والعرب هي المادة، هي السرعة، هي الظعن، هي الزخرف»[5].

واذا كان توفيق الحكيم يؤمن بأن الابداع الادبي الحق يكون بتفاعل الروح والمادة، فقد دعا في خاتمة رسالته الى ان يحدث مثل هذا التفاعل في الادب المصري الحديث بين روحية مصر ومادية العرب، قائلا لطه حسين: «اي ادب عظيم يخرج من هذا التلقيح؟ اني اؤمن بما اقول يا دكتور، واتمنى للادب المصري الحديث هذا المصير: زواج الروح بالمادة، والسكون بالحركة، والاستقرار بالقلق، والبناء بالزخرف، تلك ينابيع فكر كامل، ومدنية متزنة لم تعرف

(١) خصومة: ٦ .
(٢) المصدر نفسه: ٧
(٣) المصدر نفسه: ٧ .
(٤) المصدر نفسه: ٧ .
(٥) المصدر نفسه: ٧ .

البشرية لها من نظير»[1].

وقد ردّ طه حسين عليه برسالة ادبية، نشرها ايضاً في مجلة الرسالة، وجعل عنوانها «الى الاستاذ توفيق الحكيم»، ويمكن القول: انه فيها لم يقره على اكثر ما ذهب اليه في آرائه السابقة، فقد لفته الى انه يسرف ويتعجل في احكامه؛ ولذا فهي لا تثبت للنقد والتمحيص، ويأتي في مقدمة هذه الاحكام حكمه على العرب،

فرأيه فيهم يحتاج منه الى التقويم حاجة شديدة؛ ذلك انه جار عليهم جورا اشد مما فعل ابن خلدون؛ لان ابن خلدون لم تتح له معرفة امور اليونان والرومان والهند كما هي معروفة الان، ولذا فهو معذور واما الحكيم فلا عذر له، يقول له مستنكرا رأيه في العرب: «.. قد ذهب الى مثل ما ذهبت اليه جماعة من المستشرقين منهم دوزي ورينان، واحسبكم تظلمون العرب ظلما شديدا، وتقضون في امرهم بغير حق»[2].

واما غض الحكيم من شأن الادب العربي، وقوله عنه: انه قام على السرعة والزخرفة، وأنه يفتقر الى الوحدة الفنية، والاهتمام بالروح كما هي الحال في الآداب المصرية والهندية والفارسية القديمة، فقد رده طه حسين بقوله اننا لا نكاد نعرف من آداب هذه الامم شيئا يثبت للمقارنة مع الادب العربي؛ ولذا فان ادبنا العربي يتفوق على هذه الآداب دون ريب، ذلك انه على النقيض مما ذهب الحكيم،

(١) خصومة: ٧ .
(٢) طه حسين، الى الاستاذ توفيق الحكيم، مجلة الرسالة: ص٨، العدد (١١) سنة ١٩٣٣، وانظر «فصول في الادب والنقد» ص٩٧ .

للعرب شعرهم ونثرهم ودينهم ولهم قصصهم ايضا[١]، بل «ان الادب العربي الخالص ارقى جدا من الادب الروماني الخالص ... وقد تفوق الرومان في الفقه ولكنهم لم يسبقوا العرب في هذه الناحية ولعل الامة الوحيده التي يمكن ان تشتبه بالرومان في الفقه هي الامة العربية»[٢]، واما الادب اليوناني فيمكن القول إنه يتفوق على الادب العربي ولكن يمكن الاعتراض على هذا القول بانه لايجوز ان نقيس رقي الادب في امة من الامم برقي الادب في امة اخرى، فظروف الحياة العربية تخالف ظروف الحياة اليونانية؛ ولذا اختلف الادب عند كل منهما،. وهنا نلاحظ ان طه حسين لا يقطع او يسلّم بتفوق الادب اليوناني على الادب العربي القديم، ذلك ان الادب العربي في رأيه قد صوّر حياة العرب اصدق تصوير، وادى واجبه احسن الاداء، وكل ما ياخذه بعضهم عليه انه لايصور حياتنا نحن الان، على انه يرد هذا المأخذ، ملتفتاً الى الحكيم الذي كان قد حكم للأدب اليوناني بالتفوق قائلا: «ولكن أواثق انت بان الادب اليوناني القديم قادر على ان يصور الحياة الحديثة تصويرا يرضي اهلها ؟ اما انا فلا اتردد في الجواب على مثل هذا السؤال فالادب اليوناني القديم خصب، غني ممتع، من غير شك، ولكنه كالادب العربي قد صور حياة القدماء وهو قادر على ان يلهم المحدثين لا اكثر ولا اقل»[٣].

كذلك لاحظ ان الحكيم قد ظلم العرب حين ميّزهم بالسرعة،

(١) إلى توفيق الحكيم: ٨ .
(٢) المصدر نفسه: ٨ .
(٣) المصدر نفسه: ٨ .

وعاب فنهم وغناءهم لان العرب انما اسرعوا في الفتوح، ثم ما لبثوا ان استقروا في الامصار، وشادوا حضارة تشبه في القرون الوسطى حضارة اليونان في العصر القديم، واما فنهم فقد اسهمت فيه الامم الاسلامية كلها، وسواء امدحنا هذا الفن ام عبناه، فمن الافضل «ان نقتصد في اضافته الى العرب»[١] واما الموسيقى والغناء، فكل شيء يدل على انهما كما عرفهما العرب ايام الأمويين والعباسيين وفي الاندلس كانا متاثرين اشد التاثر بالموسيقى البيزنطية والغناء البيزنطي، يقول ملتفتا الى الحكيم «اذا اردت ان تعيبهما فلا تنس ان تعيب اصلهما اليوناني القديم»[٢].

ثم يخلص اخيراً الى جوهر الموضوع، الذي ساله الحكيم الرأي فيه، وهو العناصر التي ينبغي ان يقوم عليها الادب المصري الحديث، فيجيب بقوله: انه منذ ان (استعربت) مصر، قام وينبغي ان يقوم في المستقبل على ثلاثة عناصر اساسية: اولها العنصر المصري الخالص الموروث منذ اقدم الازمان، وثانيها اللغة العربية والدين والحضارة الاسلامية، وهذا العنصر المهم امتزج بحياة المصريين واضحى مقوما لشخصيتهم «فكل افساد له افساد لهذه الحياة، ومحو لهذه الشخصية»[٣]، وهنا نجده يلتفت الى توفيق الحكيم، الذي عد العنصر العربي وما يقوم عليه عنصرا اجنبيا يتميز من العنصر المصري، فيقول له: «لا تقل انه عنصر اجنبي، فليس اجنبيا هذا العنصر الذي تمصر منذ قرون وقرون وتاثر بكل المؤثرات

(١) الى توفيق الحكيم: ٨ .
(٢) المصدر نفسه: ٨ .
(٣) المصدر نفسه: ٨

التي تتاثر بها الاشياء في مصر من خصائص الاقليم المصري، فليست اللغة العربية فينا اجنبية، وانما هي لغتنا وهي اقرب الينا الف مرة ومرة من لغة المصريين القدماء، وقل مثل ذلك في الدين، وقل مثله في اللغة»[1].

وثالث هذه العناصر الثقافة الاجنبية، على اختلاف مصادرها وانواعها، ولكن طه حسين يعرب عن مخاوفه من الفناء في هذه الثقافة الاجنبية، ويحذّر من خطر هذه الثقافة على شخصية مصر العربية، ويلفت الى ان هذا الخطر يكون حين تؤثر مصر ثقافة اجنبية واحدة بعينها، كالثقافة السكسونية او اللاتينية؛ ولذا يقترح لاضعاف خطر هذه الثقافات الاجنبية على شخصية مصر العربية ان يفتح الباب للثقافات الاجنبية كلها... يقول: «فلو فتحنا ابوابنا للثقافات الاجنبية على اختلافها، لانتفعنا بها كلها .. ولاضعف بعضها بعضا، وحال بعضها دون بعض ان يفنينا او يسيطر علينا، لذلك تمنيت وما زلت اتمنى لو لم تفرض على مصر لغة بعينها من اللغات الاوروبية، بل جعلت اللغات الحية الراقية كلها مباحة للطلاب يأخذون منها ما يشاؤون»[2] ثم يختم رده بقوله: انه جاد في الدعوة الى هذه العناصر الثلاثة، التي ينبغي ان تطبع الادب المصري الحديث بطابعها، وانه مؤمن كل الايمان بشخصية مصر العربية، التي لن تستطيع الثقافات الاوروبية ان تفنيها او تضعفها، وانما ستساعدها على النماء والتطور، يقول:

(١) إلى توفيق الحكيم: ٨
(٢) المصدر نفسه: ٨ .

«..فشخصيتنا المصرية العربية اقوى بحمد الله من ان تمحي او تزول، والحضارة الاوربية اقوى والزم من ان نعرض عنها، او نقصر في الاخذ بحظنا منها»[1].

☆☆☆

وبعد ... فلعلنا لاحظنا موقف طه حسين الواضح من القضايا السابقة، ومع هذا فنحن نجد بعض خصومه المتزمتين، لاينفكون يروجون انه كان اكبر داعية الى افناء شخصية مصر العربية في الثقافة العربية او في الشخصية الاوروبية. وقد عرض انور الجندي لرسالة طه حسين الى توفيق الحكيم السابقة، فما زاد على قوله: «تحوّل طه حسين عن هذا الرأي في كتاب مستقبل الثقافة»[2].

والحق انه لم يتحول في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» عن هذا الرأي، ولكن انور الجندي اعتمد في فهمه لهذا الكتاب على ما كتبه عنه الدكتور محمد محمد حسين [3]، الذي فهم الكتاب - مثله مثل الكثيرين - على غير وجهه، كما سنرى، والذي ينقض ما ذهب اليه انور الجندي نقضا ظاهرا، ويدل دلالة قاطعة على عدم صحته، هو ان طه حسين قد عاد فنشر رسالتة التي اجاب بها توفيق الحكيم في كتابه «فصول في الادب والنقد» الذي ظهر في عام١٩٤٥[4]، اي بعد سبع سنوات من ظهور كتاب «مستقبل

(١) إلى توفيق الحكيم: ٨

(٢) المعارك الأدبية: ٥٩٤ .

(٣) انظر المرجع نفسه: ٤٠٩، ٤٢٢-٤٢٤

(٤) انظر كتابه «فصول في الادب والنقد» ٩٧ - ٩٨ وما بعدها .

الثقافة في مصر»[1]، مما يدل على انه في آرائه قد ظل ثابتا على الزمن، وهو ما غفل عنه انور الجندي او تغافل عنه ولم يذكره، كذلك ينقض ما ذهب اليه ان طه حسين عاد مطلع الخمسينيات فكرر آراءه السابقة، او ما يقاربها، لسلامة موسى، وهو يحاوره على نحو ما رأينا .

اما توفيق الحكيم فيبدو انه افاد من آراء طه حسين، واقتنع بوجاهتها؛ ذلك انه عاد فوجه اليه رسالة اخرى، عنوانها «من توفيق الحكيم الى الدكتور طه حسين»[2]، وقد اقر له في بدايتها بمنطقه المقنع، وباستاذيته الادبية والفكرية، قائلا له: «.. انك لاتلمس شيئا حتى ينقلب الى حق: حقٍ كبيرٍ يبتلع كل رأي، ويلقف كل حجة، تلك عصا الاستاذية، ما كنت اجهل انك حاملها في هذا العصر»[3] كما ختمها مقرًا بفضله عليه من الناحية الادبية والفكرية، موحيا مرة اخرى بأنه يعدّه كبير الادباء والمفكرين في الوطن العربي كله، قائلاً له: «.. أيّ ضمان أنت في الشرق لحياة الفكر والبيان»[4].

وأما الخصومة التي رأيناها بين الأديبين حول مسرحية «شهرزاد» ونقدها، فسرعان ما زالت إثْر اعتذار الحكيم، فعادت المودة والصفاء بينهما، حتى أنهما التقيا عام ١٩٣٦ في قرية

(١) وقد نشر كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» سنة (١٩٣٨) .
(٢) انظر مجلة الرسالة، العدد (١٨) أول أكتوبر عام ١٩٣٣
(٣) المصدر نفسه: ص٩
(٤) المصدر نفسه: ١٣ .

«سالنش» الفرنسية، واشتركا في تاليف قصة واحدة، هي «القصر المسحور»، والطريف انهما استوحيا فكرتها من مسرحية «شهرزاد» نفسها التي دارت حولها الخصومة النقدية[1]، وعلى الرغم من أن طه حسين قد ظل ثابتاً في مآخذه النقدية على مسرح الحكيم عامة، ومسرحية شهرزاد خاصة، يرددها في كل مناسبة، فقد بقي التقدير والإعجاب بينهما متبادلاً، خلال السنوات الطويلة التالية، حتى إذا توفي طه حسين في عام ١٩٧٣، والحرب العربية الإسرائيلية تدور رحاها، كتب توفيق الحكيم على نَعْش صديقه[2]: «... إنّ روحك العظيمة لم تشأ أن تفارق جسدك إلاّ بعد أن فارق اليأس روح مصر».

(١) انظر مقابلة محمد بديع سربية لتوفيق الحكيم، مجلة الموعد: ص١٢ عدد (١٠٩٩) سنة ١٩٨٤ .

(٢) طه حسين يتحدث عن أعلام عصره: ٣٧ .
وانظر العبارة بألفاظ مختلفة قليلاً في كتاب «معك» لسوزان طه حسين: ص١٢٠ . حيث جاءت على هذا النحو: «لم يرد أن يترك روحه تغادر الحياة، قبل ان يغادر اليأس روح وطنه».

محاورة محمود العالم وعبد العظيم أنيس

في النصف الثاني من هذا القرن، وبُعيد ان قامت الثورة المصرية في عام١٩٥٢، اخذ نفر من الادباء المصريين يخوضون في قضايا ادبية، بدت في حينها، وكانها تثار لاول مرة. مثل قضية: ادب الملوك، والادب الشعبي، والادب الثوري، والعلاقة بين صورة الادب ومادته (شكله ومضمونه) ونحو ذلك.

ولما كان معظم هؤلاء الادباء من الشباب وقتذاك، وكان طه حسين يؤمن بضرورة ارشادهم وتوجيههم، فقد راح يحاور بعضهم من أمثال: لويس عوض[١] وسامي داود[٢]، ويدرأ في أثناء ذلك عن الأدب العربي بعض التُّهم، التي كان سلامة موسى يوجهها، ويحاول إقناع الشباب بها على نحو ما رأينا.

(١) انظر «خصام ونقد»: ١٦٦ .

(٢) انظر المصدر نفسه: ١٤٣ - ١٤٤

ومن أبرز القضايا النقدية، التي عرض طه حسين لها في الخمسينيات؛ لأنه رأى بعض الكتاب الشباب يخوضون فيها خوضاً لافتاً، قضية: الأدب للأدب أم الأدب للحياة؟ أو قضية: الأدب بين الالتزام والتحرّر، والقضية - كما نعرف - ثارت في فرنسا القرن الماضي حينما نشر الشاعر بودلير (١٨٢١-١٨٦٧) ديوانه زهور الشر[١]، كما ثار حولها الجدل مطلع هذا القرن في أوروبا، ومن أشهر النقاد الذين تصدّوا لمناقشتها الناقد «برادلي Bradley»، وقد مال إلى مذهب «الشعر للشعر» في محاضراته التي ألقاها في جامعة اكسفورد، ثم نشرها في كتاب بعد ذلك[٢]. وقد خالفه في ما ذهب إليه الناقد «ريتشاردز Richards» وردّ عليه في فصل من كتابه «مبادىء النقد الأدبي»[٣] وقد حاول طه حسين ان يرشد الكتاب الشباب الى سواء السبيل في هذه القضية، التي رأى اكثرهم يضلّ فيها، أو يفهمها على غير وجهها الصحيح، مع أنها في رأيه قضية «بديهية، مقرّرة، قد اتفق الناس عليها، واطمأنوا إليها منذ أقدم العهود»[٤]، فخصّص لذلك مقالات عدة، نحو مقالته

(١) انظر «حافظ وشوقي»: ٥٨ - ٦٢ .

(٢) انظر A. C. Bradley, Oxford Lectures on poetry, pp. 4 - 5 . London , 1959 .

(٣) انظر كتابه Principle of Literary Criticism , PP. 71 - 80, Routledge and Keganpaul , London , 1963

(٤) خصام ونقد: ١٠٩ .

«الأدب والحياة» و«الحياة في سبيل الأدب» و«صورة الأدب»[1].
وقد قرر طه حسين منذ البداية أنّ الأدب ليس وسيلة لغاية «ولا ينبغي أن يكون وسيلة، والأديب لا ينشيء أدبه؛ ليحقّق هذا الغرض أو ذاك، ولا ليبلغ هذه أو تلك، وإنما الأدب غاية نفسه، والأديب يكتب؛ لأنه لا يستطيع إلاّ أن يكتب»[2] ثم ذهب إلى أن الدعوة إلى تسخير الأدب، ليكون وسيلةَ إصلاح، أو سبيل تغيير في حياة الشعوب هي دعوى ينبغي للأديب العربي ألا يفكر فيها، أو يتورط في المناداة بها أما هؤلاء الذين يدعون إلى أن يكون الأدب وسيلة للإصلاح الاجتماعي فمن شأن دعوتهم أن تجعل الأدب «أداة من أدوات وزارة الشؤون الاجتماعية، تستعين بها على تحقيق ما أنشئت له من الأغراض»[3].

على أنّ رفضه أن يكون الأدب وسيلة لغاية لا يعني أنّ هذا الأدب عقيم بطبعه، وأن صاحبه آثِر بطبعه ايضاً، وإنما يعني أنّ الإصلاح أو التغيير ينبغي أن يصدر عن الأدب صدوراً طبيعياً دون تكلف «كما يصدر الضوء عن الشمس، وكما يصدر العبير عن الزهــرة، وكمـا تثـير الروضة في نفسك مـا تثيـر مـن الشعـور

(١) انظر خصام ونقد: ٤١، ٧٢، ١٠٨
(٢) المصدر نفسه: ٨٥ .
(٣) المصدر نفسه: ٦١ .

بالجمال»[1]، فضوء الشمس لا ينبعث عنها لتحقيق الأغراض والغايات التي يريدها الإنسان؛ لأنه يريدها، وإنما يصدر عنها بطبيعته، والزهرة لا تنشر رائحتها الزكية، لتتملق حاسة الشم في الانسان، وإنما يحدث ذلك منها بطبيعته أيضاً[2].

ثم يعرض للزعم أنّ الأدب العربي القديم هو أدب فردي؛ لأنه أدب ملوك وأمراء، فيؤكد مرة أخرى أن هذا القول هو سخافة، لا تستحق التوقف، على الرغم من أنه كثر تكرارها[3]، ذلك أنه ما كان لهذا الأدب أن يخلد وأن يستمر لولا أن فيه العنصر الاجتماعي الانساني الذي أتاح له البقاء «وأتاح للأجيال المتعاقبة أن تفرغ إليه تلتمس فيه اللذة والمتاع، ونعيم النفس، وغبطة القلب، ورضا الضمير»[4].

ويلاحظ أن طه حسين يؤمن بأنه حتى حين يكون الأدب لا غاية له سوى الأدب، فإنه مع هذا لا يكون فردياً، ذلك أن الأدب نفسه هو «اجتماعي بطبعه، وهو موجّه بطبعه في سبيل الحياة بأقوم معانيها، وأبقاها، وأرقاها، حياة العقول والقلوب، التي لا تموت، ولا يدركها البلى، لا حياة الأجسام التي تُخلق من تراب وتصير إلى تراب»[5]، وإذن فالقول إنّ ثمة أدباً فردياً هو في رأيه

(١) خصام ونقد: ٥٨
(٢) المصدر نفسه: ٥٩ .
(٣) المصدر نفسه: ١١٦
(٤) المصدر نفسه: ١١٦ .
(٥) المصدر نفسه: ١١٦ - ١١٧

حديث خرافة، وكل أدب عنده هو أدب اجتماعي، يقول مقرّراً هذا الرأي: «أنا لا أعرف هذا الأدب الفردي، ولا أعلم أنه وجد في وقت من الأوقات، فالأدب اجتماعي بطبعه، كالإنسان الذي وصفه أرسطاطاليس بهذا الوصف منذ أربعة وعشرين قرناً»[1].

وهو يلاحظ أنّ بعض الكتاب الشباب - بُعيد الثورة - قد أخذوا يردّدون عبارة «الأدب في سبيل الحياة»و لكنه حين يسألهم عن المقصود بها يجدهم يعجزون عن الجواب الواضح؛ ولذا يرجّح أنهم يقصدون بها إلى أن «الأدب موجّه إلى الجماعات الإنسانية»[2]، فإذا كان المقصود بها كذلك، فإنه حينئذ لا يتردد في القول: «..أتحدى أصحاب (الأدب في سبيل الحياة) وأسألهم أن يدلوني على أدب قديم، أو حديث لم يتجه إلى إرضاء هذه الحاجة الإنسانية، وإلى ترقية الحياة الاجتماعية، وتكميلها، ونقلها من طور إلى طور»[3]

كذلك يلاحظ أن بعض هؤلاء الأدباء الشباب من أمثال محمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس يقصدون بالأدب الفردي أدب أصحاب نظرية «الفن للفن» ولذا فهو ينبههم إلى أنهم يفهمون هذه النظرية فهما غير صحيح، ذلك أنّ الذين يريدون «الفن للفن» لا يرتفعون بأنفسهم عن الجماعات الإنسانية، ولا يجعلون أنفسهم ملائكة، ولا يعيشون في السحاب، ولا يلتزمون هذه الخرافة التي تسمى «البرج العاجي»[4] وإنما هم يريدون من الجماعة الإنسانية،

(١) خصام ونقد: ١١٦ .
(٢) المصدر نفسه: ١١٩ .
(٣) المصدر نفسه: ١١٩ .
(٤) المصدر نفسه: ١١٩ .

كما يريدون لأنفسهم أن تعطي شيئاً من وقتها، ومن نشاطها، ومن ملكاتها للجمال من حيث هو جمال، فيستمتعون به من خلال الفن الرفيع، سواء أكان أدباً أم تصويراً أم موسيقى أم غيرها من الفنون الجميلة[١]، كما أنّ أصحاب هذه النظرية يريدون للجماعة الإنسانية أن ترتفع بين حين وآخر عمّا يشغلها من منافع عاجلة قريبة إلى ما هو أبقى وأرقى[٢].

وهكذا يخلص طه حسين إلى أنّ الأدب الذي لا يخدم الجماعة الإنسانية لم يوجد بعد، كما يخلص إلى أن الأديب حر في ما يبدع كل الحرية، لا ينبغي لأحد كائناً من يكون، فرداً أو جماعة، أن يوجه أدبه هذه الوجهة أو تلك، بل هو لا يتردّد في معارضة هذه المقولة التي يرددها الأدباء الشباب: «الأدب في سبيل الحياة»، ويعكسها قائلاً: إنه يريد من القراء جميعاً أن يخلصوا جزءاً من نشاطهم «للحياة في سبيل الأدب، وأن يأخذوا أنفسهم ساعة من نهار أو ساعة من ليل، تقصر أو تطول ليفرغوا للقراءة والذوق»[٣]، إذ ليس كثيراً أن يخصّصوا ساعة من نهارهم للقراءة، بعد أن ينفقوه في الجد والكد، ليرتفعوا فيها عن حيوانيّتهم، ويسموا إلى إنسانيتهم الرفيعة، فيكتشف الواحد منهم أن هذه الساعة التي خصّصها في يومه للأدب «إنما أتاحت له أن يكون إنساناً لحظات، مهما تكن قصاراً، فإنها عذبة، نافعة، جديرة بأن تنفق الحياة في سبيلها»[٤].

(١) خصام ونقد: ١١٩ .
(٢) المصدر نفسه: ١١٩ .
(٣) المصدر نفسه: ١٢٦ - ١٢٧
(٤) المصدر نفسه: ١٢٧ .

وقد لاحظ طه حسين أيضاً أن هؤلاء الأدباء الشباب، ومنهم محمود أمين العالم وعبدالعظيم أنيس، يفصلون بين صورة الأدب ومادته (شكله ومضمونه) وذلك حين يذهبون إلى أن الأدب يستمد صفته أو كونه أدباً أو غير أدب من مضمونه خاصة، وقد أنكر عليهم هذا الفصل التعسفي، مؤكداً لهم أنّ «صورة الأدب ومادته شيئان لا يفترقان، أو هما شيء واحد إذا شئت، وأضف إليهما عنصراً ثالثاً - إنْ صحّ أن يستعمل العدد في مثل هذا الموضع وهذا العنصر يلزمهما لزوماً لا فكاك منه، وهو **عنصر الجمال**»(١)، وإذن فالأدب لا يستمد صفته من مضمونه أو مادته - كما يذهبون -، وإنما يستمدها من عنصر ثالث هو الجمال، وهذا العنصر هو الفيصل بين الأدب وغيره من ألوان الكتابة، يقول «.. حيثما وجد الجمال في الكلام كان الأدب، وحيثما خلا الكلام من هذا الجمال، كان ما شئت أن يكون»(٢).

وقد دعا طه حسين الأدباء الشباب إلى أن يفهموا الأدب على هذا النحو الحق، الذي فهمه أدباء البشرية منذ أقدم العصور.



على أن هذه الآراء السابقة، التي توجّه بها طه حسين إلى الأدباء الشباب في أوائل الخمسينيات، والتي دارت في الغالب حول تحرر الأدب والتزامه، وحول صورته ومادته، وحول ماهيته وحدوده هذه الآراء أو بعضها قد لقيت في حينه معارضة من نفر من الأدباء

(١) خصام ونقد: ٨٨ .
(٢) المصدر نفسه: ٨٩

الشبان، أطلقوا على أنفسهم «جبهة الأدب الجديد»، فأصدر باسمها محمود أمين العالم والدكتور عبدالعظيم أنيس بياناً أدبياً في شهر (فبراير) من عام ١٩٥٤، وجّهاه إلى طه حسين بوصفه في نظرهما عميد الأدب العربي، وزعيم المدرسة الأدبية القديمة وعارضا فيه ما كتبه عن صورة الأدب ومادته على حين هاجما العقاد وفهمه للوحدة العضوية[١].

وقد ذهب الكاتبان إلى أنّ الأدب يتألف من مادة وصورة دون ريب، ولكن صورته ليست في اللغة، ولا هي الأسلوب الجامد، وإنما هي (عملية داخلية) في قلب العمل الأدبي، لتشكيل مادته وأبرز مقوماته. وأنّ مادة الأدب ليست هي المعاني كما يرى عميد الأدب طه حسين والمدرسة القديمة، وإنما هي أحداث تقع وتتحقق داخل العمل الأدبي نفسه، وهي (عمليات) متشابكة متفاعلة، يؤدي بعضها إلى بعض، كذلك أصرّ الكاتبان على أن الأدب يستمد صفته من مضمونه، إذ ينبغي أن يعكس هذا المضمون مواقف ووقائع اجتماعية، فكل أثر أدبي لا يصوّر المواقف والوقائع الاجتماعية فهو ليس أدباً[٢].

وقد رد طه حسين على بيان محمود العالم وعبد العظيم أنيس بمقال، جعل له عنوانا طريفا هو «يوناني فلا يقرأ»[٣]، وهي عبارة

(١) انظر كتاب «في الثقافة المصرية» لمحمود أمين العالم وعبد العظيم أنيس: ص٦٠ القاهرة ١٩٥٥ .

(٢) انظر المصدر نفسه: ٦٥ - ٦٦
وانظر «خصام ونقد» ٩٢ - ٩٣ .

(٣) انظر خصام ونقد: ٩٠ .

شاعت في اوروبا خلال العصور الوسطى، واصبحت «كناية يعبر بها عما يصعب فهمه ويستعصي تحصيله وتحقيقه»[١]، والذي دعاه الى اختيار هذا العنوان انه قرأ مقالة محمود العالم وزميله ثلاث مرات دون ان يفهم عنهما إلا القليل، وطه حسين، - كما نعرف - اكثر ما يكره الغموض في الكاتب، وقد مرّ بنا نقده لغموض الرافعي والعقاد؛ ولذا نجده يعرض لبعض تعابيرهما، التي تبدو جديدة في لغة النقد، وغامضة حقا، ليقول في سخرية: «.. نعم يوناني فلا يقرأ حتى اعرف (قلب العمل الأدبي) وحتى أعرف هذا الاشتباك الذي يكون بين هذه العمليات، وكيف يفضي بعضها لبعض»[٢]، ثم يخلص من سخريته الى ان هذه التعابير الغامضة هي اقرب الى الاحاجي وفنون اللغز منها الى لغة الادب والنقد، واما القليل الذي فهمه من كلامهما فمنه قولهما: ان الادب لايكون ادبا حقا، إلا اذا صوّر المواقف والوقائع الاجتماعية؛ ولذا فهو يردّ عليه بقوله: انه لو كان صحيحا حقا لعنى ان الادب يجب الايصف الطبيعة مثل: الانهار والاشجار والجبال والسهول والحيوان والوديان؛ لان هذه لاتصلح مضمونا او موضوعا للادب، بحسب شرطهما السابق، لكونها ليست مواقف او وقائع اجتماعية[٣].... ولعنى ايضا ان الادب ينبغي الايتحدث عن السحاب والمطر والرياح العاصفه، والنسيم العليل والبرق والرعد لانها لاتصلح موضوعا له، لكونها غير وقائع او مواقف اجتماعية[٤]... ولعنى ايضا ان الادب ينبغي

(١) خصام ونقد: ٩٣ .
(٢) المصدر نفسه: ٩٤ - ٩٥
(٣) المصدر نفسه: ٩٧
(٤) المصدر نفسه: ٩٨

الا يصف احساس الفرد وشعوره ونجواه، وما يدور في ضميره وذهنه من الخواطر، وما يضطرب في قلبه من العواطف، وفي نفسه من المعاني، لانها لا تصلح موضوعا له، فهي ليست وقائع اجتماعية ولا مواقف[(١)].

وإذن فلو اخذ براي الكاتبين السابق لالغي اكثر الادب العالمي القديم والحديث، لانه لايصور الجوع ولاالبؤس، وهنا يلتفت طه حسين الى المدرسة النقدية الاشتراكية، التي ينتمي اليها محمود العالم وعبد العظيم أنيس، فيعرض بها ساخرا بقوله: «.. الانسان عند هؤلاء السادة، وعند اساتذتهم ايضا قد خلق لياكل ويشرب، .. فجده وجهده، وتفكيره وتدبره وتأمله وشعوره وعواطفه كل هذا يجب ان يتجه الى شيء واحد ليس غير، وهو تيسير الحياة الاجتماعية، وارضاء حاجات الناس التي تتصل لاجسادهم وحدها»[(٢)].

ومدرسة النقد الواقعية الاشتراكية هذه لاتعترف إلابالجانب المادي في الانسان، واما الجانب الروحي فلا تعترف به، ولذا فهي تعنى بالطعام والشراب والدور والثياب، على حين لاتلقي بالا الى قيم الخير والشر والحق والباطل والجمال والقبح وهي القيم «التي عاشت عليها الانسانية قبل ان تنشأ هذه المدرسة الحديثة في اواسط القرن الماضي»[(٣)] وهي تقلل من شأن كثير من الكتاب العالميين المبدعين،

(١) خصام ونقد: ٩٨
(٢) المصدر نفسه: ٩٨
(٣) المصدر نفسه: ٩٩

فالشاعر ت.س. اليوت ليس بذي خطر؛ لانه مسيحي يؤمن بالدين، وبأن للإنسان روحا وعقلا وقلبا، ونفسا تسمو فوق المادة، ولايقصد الى الوقائع الاجتماعية والمواقف، كما يريدها نقاد هذه المدرسة المادية الخالصة(١)، والقاص الايرلندي «جيمس جويس» ليس بذي خطر، لانه عني في قصته «أوليس» بالضمير الفردي ووصف الانهيار النفسي وتحلل الشخصية الفردية»(٢)، على حين تعجب هذه المدرسة بالشاعر «مايكوفسكي» والقاص «إيليا اهرنبورج»، لانهما عنيا بالوقائع الاجتماعية، والحضارة الصناعية المادية(٣).

وإذن فالبون واسع - في رأي طه حسين بين من يشترط في الكلام كي يكون ادبا ان يصور بؤس الجياع،الذي يجب ان يقدم اليهم الطعام، وبين من يشترط فيه ان يحتوي على الجمال الفني الذي يؤلف بين صورته ومادته، ولايهمه من اين ينبع هذا الجمال بعد ذلك: من جانب مادي او روحي(٤).

وتتجلى سخرية طه حسين المرة من نظرة المدرسة الواقعية والاشتراكية الى الادب، اذ يلتفت الى الادباء الشباب والقراء عامة، فيقول لهم: «.. من شاء ان يلغي عقله وضميره، وقلبه وروحه، وان يصبح جسما ليس غير، فليسرع الى المدرسة التي يدعو اليها هؤلاء السادة، لياكلوا مريئا، وليشربوا هنيئاً، وليناموا وادعين،

(١) خصام ونقد: ٩٩

(٢) المصدر نفسه: ٩٩ .

(٣) المصدر نفسه: ٩٩-١٠٠

(٤) المصدر نفسه: ٩٨ .

وليكونوا كهذه الادوات الكثيرة، التي نسخّرها لمرافقنا المختلفة»[١]؟

☆ ☆ ☆

وبعد ... فلعلنا لاحظنا ان طه حسين لايعارض في ان يصوّر الادب الوقائع الاجتماعية والمواقف. كما لايعارض في ان يستوحي الادب واقع البؤس والحرمان والجوانب المادية في الحياة، فهو نفسه قد صوّر واستوحى ذلك في أدبه[٢]، وانما هو يعارض في ان يشترط ذلك في الكلام كي يكون ادبا دون ادنى نظر الى عنصر الجمال الفني، فهذا الاشتراط بحسب مفهومه، له خطره من وجهتين اساسيتين: الاولى انه يعني ان الكلام اذا صوّر الوقائع الاجتماعية والمواقف، وعني بالجوانب المادية في الحياة، فهو اذن، أدب، سواء اتضمن عنصر الجمال الفني ام لم يتضمنه كما يعني في الوقت نفسه ان الكلام اذ لم يصوّر ذلك، وصور ما يتصل بالروح والقيم، وبمظاهر الطبيعة، فهو حينئذ غير ادب حتى لو توفرفيه عنصر الجمال الفني، ولاريب ان هذا الاشتراط فيه تعسف ظاهر، لايمكن قبوله او اساغته، على حين ان اشتراط طه حسين عنصر الجمال الفني في الكلام كي يكون ادبا هو اشتراط منطقي دقيق، يستوحي حقيقة الامر في القضية.

واما الوجهة الثانية فهي ان هذا الاشتراط المسبق للادب يعني تقييده، وتقييد حرية الاديب ايضا، على حين ان طه حسين يشترط للاديب الحرية في انتاج ادبه، فهو حر، يصدر عنه هذا الادب

(١) خصام ونقد: ٩٨ .
(٢) كما نجد هذا في كتابه «الايام» و «شجرة البؤس» و «المعذبون في الارض» مثلاً .

بطبعه، صدور الضوء عن الشمس، والشذا عن الزهرة، على ان هذه الحرية لاتجيز للادب ان يكون غير ملتزم او غير هادف، فالادب الفردي في رايه لم يوجد بعد، وكل ادب اجتماعي إنساني بطبعه، حتى ادب اصحاب «الفن للفن»، لانه يعود على المجتمع بالمتعه واللذة الفنية، وهنا يعترضنا تساؤل مهم: لقد رأينا طه حسين في نقده العلمي للادباء الشبان في الخمسينيات ياخذ عليهم الميل الى التشاؤم في معالجة قضايا المجتمع، مذكرا اياهم بان الاديب طبيب للمجتمع ومصلح[1]، كما رايناه ينقد ثروت أباظه وامين يوسف غراب وامثالهما بان في انتاجهم مامن شانه ان يلحق الضرر بالمجتمع، مذكرا اياهم برسالتهم، وهي: «أن الأدباء إنما يكتبون لتاديب الشعب وتهذيبه لالتملقه واغرائه»[2]. فكيف يتفق هذا النقد وإيمانه بحرية الاديب ؟

والجواب ان المقصود هو ان يكون الاديب حرا من اي قيد خارجي يفرض على نفسه وذوقه وعواطفه والهامه، يقول طه حسين في مقابلة نشرت عام١٩٥٩: «.. كل ما انكره على الذين يقولون ان الادب يجب ان يكون له هدف هو انهم يريدون ان يفرضوا على الاديب اغراضا بعينها، لا يجوز له ان يتعداها وهي الاغراض التي تخدم حياة الناس المادية، وانا انكر عليهم هذا، لانه سخيف في رأيي، فاول مزايا الادب هو ان يكون حرا، والا يتاثر الاديب في انتاجه إلا بطبعه وعواطفه وذوقه هو، والا يفرض عليه

(١) انظر مقدمة «ألوان من القصة المصرية»، ١٣

(٢) نقد واصلاح: ١١٣ .

شيء من غيره مهما يكن هذا الشيء»[1] وهذه الحرية التي يريدها له لا تتنافى وكونه مقيدا بإنتاج الادب نفسه، فكلام الاديب لايكون أدبا إلا اذا كان يتضمن عنصر الجمال، والجمال في ذاته يأبى الاغراء بالشر او الاضرار بالمجتمع، لأن الاديب لا يستحق هذا الاسم في رأيه إلا اذا كان ذا ضمير حي وهو صريح في تقريره ان الاديب مسؤول امام ضميره ،يقول: «الاديب عندي مسؤول قبل كل شيء أمام ضميره»[2]. بل هو صريح في تقريره أن الاديب مسؤول امام المجتمع فضلاً عن مسؤوليته امام ضميره، يقول: «الكاتب مسؤول امام ضميره اولا، وامام الجماعة التي يكتب لها ثانيا، فليس له بدّ من ان يستحضر تبعته حين يكتب وحين ينشر أو يذيع»[3].

ومن خلال هذا المفهوم العميق المتكامل للادب، ولمعنى تحرره والتزامه معا، نجد طه حسين في ختام رده يرحب بمحاورة نقاد المدرسة الاشتراكية، شريطة الايعمدوا الى هذه التعابير الغامضة التي رايناه يسخر منها[4]، على حين نجد اعلام المدرسة الاشتراكية في النقد يقرون بفضله، فالدكتور محمد مندور مثلا كان يعترف بان له اعظم الاثر في توجيهه، وان تاثيره ظل يلاحقه خلال السنين الطويلة[5]

(١) مقابلة مع طه حسين، مجلة العربي: ص١٢٢، العدد (١١).
(٢) المصدر نفسه: ١٢٢ .
(٣) من أدبنا المعاصر: ١٩٣ .
(٤) خصام ونقد: ١٠٢ .
(٥) د. محمد مندور، معارك ادبية: ٢١، ٢٢، ٣٢، ٥٤، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة (د.ت).

وأما محمود امين العالم فنجده يسلك نفسه في عداد تلاميذه، ويعرب عن إعجابه به، فهو وان اصر في نقده الادبي على عنصر الجمال الفني، ينزع الى العقل والمنطق فيه ايضا[1]. واما عبد العظيم أنيس فقد كتب عنه بعد سنوات من موته مقالة، صور بها إعجابه الشديد به، ذلك لانه «مثقف صادق الوعد، لايفصل بين فكره ومواقفه العملية، مستعد للتضحية من اجل عقيدته الديمقراطية»[2].



(١) من حوار خاص معه بتاريخ ١٩٨٧/١٢/١٦، وكان محمود العالم يزور الاردن ويشارك في المؤتمر الفلسفي العربي الثاني الذي عقد في عمان، وانظر «النقد الادبي الحديث» للدكتور احمد كمال زكي: ٩٠ - ٩١، ١٣٣ .

(٢) د. عبد العظيم أنيس «ذكريات مع طه حسين»، مجلة العربي، ص٣٢، عدد ٢٦٨ - ١٩٨١ .

حم 1 هترو

لطه حسين بعض المحاورات القليلة الاخرى، التي لها مساس بالنقد الادبي من قريب او بعيد، والتي لم نفرد لاي منها حديثا مستقلا في هذا الفصل، وذلك إما لان المحاورة قد اخذت مكانها في تضاعيف هذا البحث، مثل محاورته رفيق العظمم، التي دارت حول شعراء المجون وطبيعة الحياة في العصر العباسي[(١)]، واما لانها لم تتوهج من خلالها قضية نقدية ما، وانما نجدها مجرد نقد، ثم ردّ يقوم في الغالب على الموافقة والاقرار، كرد الدكتور محمد حسين هيكل على نقده لكتابه «جان جاك رسو» وقد ألمحنا اليه ايضا[(٢)].

على اننا نحب في النهاية ان نعرض في شيء من الوضوح لما كان بينه وبين بعض أعلام الفكر والأدب من محاورات أخرى؛ لاننا نظن ان له دلالته النقدية، التي قد تكون من تمام الفائدة لهذا البحث.

(١) انظر حديث الاربعاء: ٥٨ – ٧١، ج٣

(٢) انظر حديث الاربعاء: ١٠٦، ١١٥، ج٣ .

محاورة أحمد أمين

وقد كانت تربطه بطه حسين علاقة متينة بدأت حين دافع عنه في ازمة الشعر الجاهلي امام لجنة الازهر وكان عضوا فيها على ان هذه العلاقة لم تمنع طه حسين من ان يجهر بما ياخذه عليه من الناحية الادبية وذلك حين نقد كتابه "فيض الخاطر» وقد انصب نقده على اسلوب احمد امين فهو يلاحظ أنه "يسرف في حبه للمعاني واعراضه عن جمال اللفظ وغلوه في ان يكون قريبا سهلا وسائغا مالوفا ومفهوما من العامة واوساط الناس»[١] على ان اهم ما أخذه عليه انه بسبب هذا الاسراف يضطر "الى ان يصطنع بعض الاستعارات العامية التي لا حاجة اليها ولا تدعو النكته الفنية الى استعمالها"[٢]، ولما كان طه حسين يناصب استعمال العامية في الادب العداء على نحو ما رأينا حتى ان ابرز أمر لم يوافق فيه استاذه وصديقه الاثير لطفي السيد هو مناداته في صحيفة

(١) «فصول في الأدب والنقد»: ٢٠ .
(٢) المصدر نفسه: ٢٠ .

"الجريدة" باستعمالها فقد خالفه وعارضه في ذلك [1] فانه لم يتردد في مصارحة احمد امين بأن استعماله اياها دونما مسوغ فني "انما هو تعمد وتكلف يفسد عليه الجمال الادبي أحيانا ويغري بعض نقاده ان يزعموا ان انشاءه ليس انشاء أدبيا" [2] واذا كان من الملاحظ أن أحمد أمين يجنح أحيانا الى العامية في أسلوبه وهدفه تقريب ما يكتب من أفهام العامة. فان طه حسين قد لفته الى ان ما يفعله يسيء الى فهم (الديمقراطية) الادبية، التي ينشدها، لانها لا تكون بافساد الادب وابتذاله والجنوح الى الركاكة والاسفاف فهذا كله له خطره البالغ لان الاديب هو قدوة لقرائه وطلابه والمعجبين به ، وانما تكون بالهبوط الى مستوى العامة مع المحافظة على فصاحة اللغة ومحاولة اغرائهم بالمزيد من المطالعة يقول : "ما أكره أن أهبط الى العامة، بل يجب أن أدنو منهم ويجب ان أرفعهم الى حيث يذوقون الادب الرفيع هذه هي الديمقراطية الصحيحة" [3]

ولم يرد احمد أمين على هذا النقد لكنه بعد مدة نشر في عام ١٩٣٦ مقالة في مجلة الرسالة ذهب فيها الى ان الحركة النقدية آلت الى الركود وأرجع السبب في هذا الى ان كبار النقاد قد أدركهم الفتور وآثروا السلامة والعافية اذ انصرفوا عن النقد الادبي أو كادوا بعد أن حققوا مطامحهم في الوصول الى مناصب كبيرة مما أدى الى ضعف حركة النقد الادبي اذ أصبح النقد في الغالب مجاملة او مصانعة[4].

(١) انظر «طه حسين يتحدث عن اعلام عصره»: ص٢٥ .
(٢) فصول في الادب والنقد: ٢٠ .
(٣) المصدر نفسه: ٢٠ .
(٤) احمد امين، النقد ايضا، مجلة الرسالة: ص٨٨١، عدد (١٥٢)، ١٩٣٦ .

ومع أن أحمد أمين لم يسم احدا في مقالته، وانما كان حديثه عاما فقد انبرى طه حسين للرد عليه، وكأنه شعر بأنه يعنيه اذ كان في هذه الحقبة قد عاد الى الجامعة وأصبح عميدا لكلية الاداب فلذا قال له في رده: " ... ان رأيك يمسني وأؤكد لك أنه يحفظني كل الاحفاظ ويؤذيني كل الايذاء" (١)

ثم بين له أنه يخالفه في ما ذهب اليه وينكره عليه، لانه يراه لا يصور الحق، فهو وزملاؤه من كبار النقاد لم يؤثروا السلامة ولم ينصرفوا عن النقد كما يقول.

وذكره بنقده لكتابه "فيض الخاطر" وبما أثار من خصومات نقدية في السنوات الاخيرة، كما لفته الى أنه اتخذ (الراديو) في بعض الاحيان وسيلة من وسائل النقد الادبي ينقد من خلاله الادباء ، دون مجاملة ثم دعاه أخيرا الى ان يبقى على رأيه القديم فيه لانه برغم منصبه ما زال صريحا وحرا جريئا في النقد الادبي كما عهده لا يبالي ما يلاقي في سبيله من خطوب وأعرب له عن أسفه لان ثقته فيه قد اهتزت على حين أن (كراتشوفسكي) الذي ترجم الايام الى الروسية في هذه الحقبة قد تنبأ له بأنه ما زال ينتظره الكثير من الخطوب(٢).

وقد رد عليه احمد امين مؤكداً له انه لم يقصد اليه في مقالته، وانما كان حديثه عاما، اعرب فيه عن امر لاحظه، وما زال يعتقد

(١) «فصول في الادب والنقد» ٣٠
(٢) انظر المصدر نفسه: ٣١ - ٣٤ . وانظر ايضا «الى صديقي احمد أمين» مجلة الرسالة: ٩٢١ - ٩٢٢، عدد (١٥٣) ٨ يونيه ١٩٣٦ .

بصحته، وعلى استعداد ان يحاوره فيه[1]، ولكن طه حسين لم يرد عليه، وكأنه اكتفى بأن ذاد التهمة التي احفظته عن نفسه، ونحسب ان الذي اثار حفيظته هو ان ما ذهب اليه احمد أمين ليس صحيحا بالقياس اليه، ذلك انه خلال هذه الحقبة كان في اوج عطائه النقدي والادبي، ويكفي ان نتذكر انه نشر دراساته الادبية في الشعر الجاهلي خلال عام١٩٣٥، وانه كتب في السنة التي حاور فيها احمد امين دراسته النقدية في شعر المتنبي، مما أثار عليه خصومة محمود شاكر وغيره، كما اثبتت السنوات التالية انه جاد في حمله المسؤولية النقدية، اذ نشر في عام١٩٣٩ دراسته النقدية في لزوميات ابي العلاء[2]، وظل يتابع ادب الشباب بالنقد والحوار حتى اقعده المرض عن الكتابة.

(١) احمد امين «الى اخي طه»: مجلة الرسالة: ٩٦٥، عدد (١٥٤) ١٥ يونيه ١٩٣٦

(٢) انظر مقدمة «مع ابي العلاء في سجنه» ص٦٤٦ من الدراسات المجموعة «من تاريخ الادب العربي» المجلد الثالث .

محاورة محمد الخضري

حين نشر محمد الخضري في العشرينيات كتابه «مهذّب الاغاني» بعد ان انفق فيه خمسة عشر عاما من العمل، وتناوله طه حسين في صحيفة «السياسة» عام١٩٢٥، ذهب في البداية الى انه سيكون حرا من الناحية النقدية في الحكم للكتاب او عليه، قال: «.. وان كانت للاستاذ عليّ حقوق تجعل من العسير ان أناله بالنقد، ولكني مع ذلك ساكون حرا، ولم لا اكون حرا، وقد كتب إلي الاستاذ نفسه،يطلب إليّ ان أكون حرا»[١].

وقد كانت المفاجأة في نقده انه حكم على الكتاب لاله، إذ ذهب فيه الى ان المؤلف انفق خمسة عشر عاما من الجهد في عمل فائدته ضئيلة، ذلك ان اختصار الكتب الادبية القديمة في رأيه هو في حقيقة الامر تشويه او مسخ لها، حتى ان اصحاب الكتب انفسهم كانوا

(١) حديث الاربعاء: ٦١، ج٣ .

يعدون ذلك اساءة اليهم، ولذا اعرب بعضهم عن رغبته في ألّا يمسّ هذا التشويه كتبه، قال يدعم حكمه النقدي: «.. لست انسى خطبة ياقوت الحموي لكتابه الجغرافي المشهور، فهو يحظر على الناس اختصار كتبه ويستنزل الوان السخط، وضروب الآفات على من يتناولون كتابه بالاختصار، وهو يقلّد الجاحظ في هذا»[1].

وهكذا يتحرّج من ان يحكم على عمل الخضري بأنه عقيم الفائدة، مثل جهد ابن منظور الذي سبقه الى اختصار كتاب الاغاني ايضا.

وقد ردّ محمد الخضري مبينا فوائد تهذيبه، والدوافع التي دفعته اليه، فهو قد رآه مبدّد الشمل فرتّبه، ويعاني من بعض التحريف فاصلح ذلك، ويحتاج الى ضبط الغريب وتفسيره، فقام بسدّ هذه الحاجة، كما اوضح ما يتميز به تهذيبه من مختصر ابن منظور، وجهر بهدفه من عمله، وهو ان «يقتسم الفضل فيه ابو الفرج؛ فإنه جمعه، ومحمد الخضري فإنه هذّبه»[2]

وقد رد عليه طه حسين، فاكد رأيه مرة اخرى في اختصار الكتب الادبية القديمة، فهو مسخ وتشويه، ثم بيّن ان خير وسيلة

(١) حديث الاربعاء: ٦٣، ج٣ .
(٢) المصدر نفسه: ٦٩، ج٣، حيث اثبت طه حسين رده

لتسديد النقص والفساد في هذه الكتب هي الوسيلة التي لجا اليها بعض علمائنا القدامى، ويلجا اليها العلماء الاوربيون الان، وهي: «ان تضع كتابا مستقلا فيه إصلاح مافي الاغاني (أو غيره) من نقص وفساد، ومن ضعف واضطراب»[1].

وأما قول الخضري: إنه يرغب في ان يقاسم ابا الفرج الفضل في كتاب الاغاني، فقد ردّه عليه بان الفضل لا يتحقق إلاّ إذا ألف كتابا قيما مستقلا، يكون مجده خالصا له دون أبي الفرج[2].

ونحسب ان اهمية محاورته للشيخ الخضري ترجع الى امرين اثنين: أولهما أننا من خلال المحاورة النقدية نظفر برأي طه حسين في قضية اختصار الكتب الادبية القديمة، وهو ان هذا الاختصار مسخ وتشويه ليس غير، وهو يؤكد هذا الرأي مرة اخرى إذ يتناول مع كتاب الشيخ الخضري كتاب «تهذيب الكامل» ايضا، الذي اختصر به السباعي بيومي كتاب الكامل للمبرّد[3]، فيقرر في خاتمة التناول ان جهد السباعي بيومي يشبه جهد الشيخ الخضري، لم ينفق في ماهو نافع، وانما هو جهد ضائع، يقول عن جهدهما وجهود الذين يختصرون كتبا أدبية قديمة: «ويل للمحدثين من هذه الجهود الضائعة، التي لو انفقت في التاليف، لافادت ونفعت

(١) حديث الأربعاء: ٧٢، ج٣ .
(٢) المصدر نفسه: ٧١ ٧٢، ج٣ .
(٣) المصدر نفسه: ٦٤ – ٦٥، ج٣ .

اكثر من نفعها وفائدتها حين تنفق في المسخ والتشويه»[١] .

ونحسب ان الايام اثبتت صحة ما قاله للشيخ الخضري، وهو ان حظ مختصره للاغاني لن يكون افضل من حظ مختصر ابن منظور، الذي لايكاد يسمع به إلا المتخصّصون، فها قد مرّ على نشر مختصر الخضري للاغاني ومختصر السباعي بيومي للكامل اكثر من ستين عاما، فهل شاعا بين عامة القراء ؟ وهل اغنيا عن قراءة الكتابين الاصليين؟

واما الامر الثاني الذي يضفي على المحاورة اهمية، فهو انها تمثل بداية توجهه نحو نقد الادباء المعاصرين، بعد ان فرغ من دراسة الغزلين الامويين[٢]، ولعلنا لاحظنا انه كرر القول كثيرا: إنه سيكون حرا في النقد، بل لقد قرّر ان صناعة النقد الادبي ليست لذيذة في ذاتها؛ لانها تضطر الناقد الى ان يقسو احيانا على من يحب ويجلّ[٣]، فكانه في بداية هذا التوجه قد اختار الشيخ محمد الخضري بعينه؛ ليثبت للادباء والقراء أنه يعني ما يقول عن حرية النقد الادبي وصناعته، وأنه يؤمن حقا بأن لامحاباة فيه، ذلك ان الشيخ محمد الخضري هو استاذه، وصاحب فضل عليه، فهو الذي اشرف على رسالته التي أعدها عن ابي العلاء المعري، والتي نال بها درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية القديمة في عام١٩١٤[٤]. ومع هذا فهو لم يتحرج من الحكم على عمله الشاق بالاخفاق .

(١) حديث الاربعاء: ٦٥، ج٣
(٢) المصدر نفسه: ٥٨، ج٣ .
(٣) المصدر نفسه: ٦٩، ٧٢، ج٣ .
(٤) انظر «مذكرات طه حسين»: ٩٦ ـ ٩٧ .

محاورة زكي مبارك

عرض طه حسين في ايجاز شديد لكتابين من كتب الدكتور زكي مبارك، ويمكن لنا من خلال تناوله لهما ان نتعرف حقيقة رأيه في شخصية مبارك الادبية، وفي أسلوب معالجته للموضوعات التي يدرسها، ذلك ان تناول طه حسين قد جاء في حقبة كان فيها الدكتور زكي مبارك من اخلص انصاره، والكتابان هما «حب ابن ابي ربيعة» و«مدامع العشاق». أما دراسته في ابن ابي ربيعة فهي رسالة صغيرة، عرض لها طه حسين في عام١٩٢٤، وهو يتحدث عن الشاعر الاموي الغزل، وبعد ان اثنى على جهده فيها استدرك قائلا: «ولكن الدكتور زكي مبارك، وهو شاب حادّ الشباب، عنيفه، قد اسرف في نقد مصعب بن عبدالله إسرافا، جعله الى الظلم أقرب منه الى الانصاف، وليس مصدر هذا الاسراف إلاأنه لم يقدّر المثل الادبية باختلاف العصور والاجيال»[1]. ثم نصح له في النهاية بان يخفف من عنف نقده وحدّته، وأن يقلع عن الاسراف والجور في احكامه قائلا «ما احسب إلا أنه عائد الى هذا النقد فملطّف مافيه من حدة، ومزيل مافيه من جور»[2].

واما كتابه «مدامع العشاق» فقد تناوله في بداية عام١٩٢٥، فاخذ عليه فيه أنه «لم يستطع آن ينسى نفسه وأهواءها، فليست غايته في ما يظهـر علميـة خالصة ولا ادبية خالصة، وانما تملّق الكاتب

(١) حديث الاربعاء: ٣٠٦ - ٣٠٧، ج١ .
(٢) المصدر نفسه: ٣٠٧

عواطفه وعواطف قرائه، وأسرف في هذا التملق، فخرجت فصوله على ان تكون مباحث علم وادب»[1].

ثم لاحظ ان ثمة فكرتين تعبثان بحياة زكي مبارك الادبية، وتفسدان عليه جهوده العلمية «فهو يريد ان يكون حرا في الدين، وحرا في الادب، وقد لامه قوم في حريته هذه، فخيّل اليه أنه مضطهد يتبعه رجال الدين بانكارهم،.. فهو يتكلفّ غيظهم واحراجهم»[2]، ثم لفته الى ان كلفه في ان يظهر بمظهر المضطهد قد يجلب له شيئا من الشهرة، ولكنه لن يصنع منه في الحقيقة أديبا او مفكرا؛ ولذا دعاه الى الاتزان في النهاية قائلا: «أظن ان صديقنا منصور فهمي قد نصح لتلميذه الدكتور زكي مبارك بالقصد والاعتدال، فلأنصح له بهما ايضا»[3].

وهكذا نلاحظ ان زكي مبارك في راي طه حسين يجنح في دراساته الى الحدة والاسراف في الاحكام، ويضحّي في سبيل أهوائه بالحقيقة، فيجور على من يتحدث عنهم، ويتكلف الظهور بمظهر المضطهد، ليتملق القراء، ويصيب الشهرة، لكنه بهذا يبعد بحوثه عن الادب والعلم، واذن فهو يحكم عليه بالاخفاق من الناحية العلمية والادبية، على الرغم من كون علاقته به كانت حميمة خلال هذا النقد، حتى إن زكي مبارك حين ثارت أزمة الشعر الجاهلي بعد ذلك بسنة، اندفع يناصره، ويذود عنه هجوم خصومه، واذن ليس

(١) حديث الأربعاء: ٦٥، ج٣
(٢) المصدر نفسه: ٦٦، ج٣
(٣) المصدر نفسه: ٦٦، ج٣ .

لطه حسين من غرض في هذا النقد البرىء سوى إظهار حقيقة ما يعتقد، وتمحيض تلميذه النصح والارشاد، ولكن طبيعة زكي مبارك المفطورة على العنف والميل الى المخاصمة، جعلته لايلقي بالا الى النقد، حتى إذا نشر كتابه «النثر الفني» في عام ١٩٣٤، واذا هو قد تعرض فيه لطه حسين باسلوب وصفه هو نفسه بانه يقوم على المقاومة الشديدة والعنف البالغ[١]. قال: «.. حتى ليحسب القارىء ان بيننا عداوة، سقيت لاجلها القلم قطرات من السم»[٢].

ولذا فإن طه حسين قد أعرض عن نقد الكتاب، وان كان في تضاعيف إحدى مقالاته عرض له، ولكن بعبارات موجزة مبهمه، تنم صياغتها على التجاهل، واستخفافه بالكتاب، وبصاحبه، الذي الح على المازني إلحاحا، كي يكتب عنه ويثني عليه، قال: «.. أخرج كاتب من الكتّاب كتابا من الكتب، وأهداه الى الاستاذ (المازني)، وعرف الناس ان هذا الكتاب قد أهدي اليه فاخذ الناس ينتظرون، وأخذ صاحب الكتاب بنوع خاص ينتظر، فلما طال الانتظار كان الطلب، ولما كان الطلب، ولم يجد شيئا، كان الإلحاح، واضطر المازني ان يذعن، وأكره المازني على ان يكتب»[٣].

ولا ريب في ان اسلوب العبارة هذا المتجاهل لزكي مبارك، يذكرنا بالاسلوب الذي رأيناه يتجاهل به محمود محمد شاكر، اذ عرض له

(١) د. زكي مبارك، « النثر الفني في القرن الرابع» ص١٤، ط٢ .مطبعة السعادة، القاهرة.

(٢) المصدر نفسه: ١٤ .

(٣) طه حسين، النقد والطربوش وزجاج النافذة مجلة الرسالة: ٤٨٣، العدد (٣٨)، ٢٦ مارس ١٩٣٤ .

في تضاعيف كتابه «مع المتنبي» فاوما الى رأيه الذي ذهب فيه الى أن خولة أخت سيف الدولة كانت تحب المتنبي على حين انه يرى انها كانت تحسن اليه احسانا، فقال عن رأيه هذا: «والفرق عظيم على كل حال بينه وبين رأي من رأى ان قد كان بين الشاعر وبينها حب اوما يشبه الحب»[1] واذا كان من المفترض ان هذا الاسلوب في التجاهل قد كان احد الاسباب التي اثارت محمود شاكر، ودفعته الى مهاجمته في عنف شديد على نحو ما سنرى فمن المؤكد هنا ان هذا الاسلوب نفسه قد اثار زكي مبارك، ودفعه الى مهاجمة طه حسين، ذلك انه ردّ بعد أيام قليله ليلفت القراء الى ان طه حسين قد عرض له ولكتابه في أسلوب المتجاهل، حين قال «أخرج كاتب من الكتاب كتابا من الكتب»، وليلفتهم أيضا في بداية رده الى انه يعرف بأن طه حسين قد اقسم جهد اليمين ليمسخنّ كتابه «النثر الفني» مسخا، «وليمحونه من الوجود، وليصيرنّ اسم زكي مبارك مرادفا لاسم عيسى بن هشام»[2].

وهكذا أخذ زكي مبارك يجهر بعدائه لطه حسين، ويهاجمه في مقالاته، ثم اتفق خلال هذ الحقبة ان طرد من الجامعة لاسباب تتعلق بسلوكه[3]، وحينئذ ثبتت صحة ما ذهب اليه طه حسين قبل تسع سنوات، إذ لاحظ وهو ينقد كتابه «مدامع العشاق» عام١٩٢٥، أنّ زكي مبارك يحب أن يظهر بمظهر الاديب والمفكر

(١) مع المتنبي: ٢٠١ .
(٢) د. زكي مبارك، من زكي مبارك الى طه حسين، صحيفة البلاغ ٣٠ مارس ١٩٣٤
(٣) انظر ما سجله الدكتور محمد الدسوقي عن طه حسين حين سأله عن اسباب طرد زكي مبارك من الجامعة «طه حسين يتحدث عن اعلام عصره»: ٤٩ - ٥٠ .

المضطهد ذلك انه ما بين سنة١٩٣٤ وسنة١٩٣٦ اندفع يهاجمه بمقالات كثيرة عنيفة، اظهر نفسه فيها بمظهر المستنير الحر، وطريد الجامعة المضطهد، الذي حاربه طه حسين في رزقه، مشيعا في هذا عبارات عنيفة مضحكة، نحو قوله: «.. لو جاع اطفالي لشويت طه حسين، واطعمتهم من لحمه، إن جاز أن أقدم إلى اطفالي لحوم الكلاب»[١].

ولم يتورع خلال مقالاته العنيفة عن نقض ما قاله سابقا في طه حسين، فبعد ان كان في نظره ناقدا صادقا، جميل الاسلوب، ممتلئا بالثقافة، وبعد ان دافع في حماسة شديدة عن كتابه «في الشعر الجاهلي» مؤكدا أنه فاتحة عهد جديد في دراسة الادب العربي القديم[٢] أضحى طه حسين في هذه المقالات الغاضبه ناقدا مزيفا غير صادق، ركيك الاسلوب، قليل المحصول من اللغة والثقافة، قليل التاثير، وأما جهده في كتاب الشعر الجاهلي فمقصور على السرقة وانتهاب آراء المستشرقين، على انه في الاربعينيات تصافى وطه حسين، وحينئذ لم يبالِ بأن ينقض آراءه فيه، التي ذهب اليها خلال حملته عليه، فبعد ان كان يردّد أنه ناقد غير صادق، عاد ليؤكد أنه ناقد منصف، حتى انه في مقدمة ديوانه «ألحان الخلود» استشهد ببعض نقد طه حسين لكتابه «حب ابن ابي ربيعة»، ليدلل على انه كان خير ناقد صدق في فهم شخصيته، وذلك إذ قال عن نفسه: «.. وقد وصفه الاستاذ الدكتور طه حسين أصدق

(١) د. زكي مبارك، ديوان الحان الخلود، ٢٩
(٢) انظر كتابه «النثر الفني» ص١٤، وعدد البلاغ بتاريخ ٣ ديسمبر ١٩٢٦

الوصف حين قال: «الدكتور زكي مبارك شاب، حاد الشباب، عنيفه»[1].

وبعد ان كان يؤكد أنه قليل المحصول من اللغة والثقافة، ضعيف التأثير؛ لأنه يردد آراء اساتذته الفرنسيين ترديد الببغاء، عاد من جديد ليقرّر: «أن الدكتور طه حسين «مسيو» بالفعل، فلغته ولغة زوجته وابنائه هي اللغة الفرنسية، ولكنه برغم ذلك من أعاظم الرجال في اللغة العربية وله تأثير خطير في توجيه الجيل الجديد»[2].

وبعد ان كان يرى اسلوبه ركيكا، يقوم على الاسراف في التكرار، عاد من جديد ليحذر الادباء من خطر اسلوبه البليغ عليهم، ذلك ان اسلوبه الجميل لايقف عند حدّ في تطوره، حتى إنه في النهاية «.. صار أعجوبة الاعاجيب في ترويض النثر الفني على ابداع أعنف المعاني في الطف الاساليب»[3].

وبينما كان يرى مايكتبه ثرثرة فارغة لاقيمة له، عاد فطلب اليه ان يكتب مقدمة لديوانه «ألحان الخلود» في عام١٩٤٧، حتى اذا وجده مشغولا، واضطر الى اخراج الديوان دون المقدمة المطلوبه، قال عنها: «.. إنها فرصة ضاعت من يدي، والسبب في ضياعها هو الاستعجال، فانا أخاف أن أموت قبل ان يظهر الديوان»[4].

(١) د. زكي مبارك، ألحان الخلود: ٥٦ .
(٢) المصدر نفسه: ٢١٣
(٣) المصدر نفسه: ٣٢٥ .
(٤) المصدر نفسه: ٢٢ .

خلاصة القول: إن زكي مبارك الذي تلمذ لطه حسين في الجامعة المصرية الاهلية، ولازمه بضع سنين، حين عمل سكرتيرا له، هو في التقويم الاخير تلميذ طه حسين المعجب، الذي نجده يحاول ان يحتذيه حينا، كما يحاول ان يتفوق عليه بتحديه والتمرد عليه حينا آخر، ولكن من خلال الادعاء الكلامي في الغالب دون العمل النقدي او الادبي، فهو كثيرا ما يضع نفسه في موازنة معه، وكانه مثله الاعلى الذي يتطلع إليه دائما، ممجّدا إيّاه مرة، محاولا تحطيمه مرة اخرى، واللافت في هذا أنه مثله درس في الازهر، ثم نال درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية، ثم أصر بعد اتصاله به أن يدرس في فرنسا، فنال درجة الدكتوراه من السوربون كما حاول مثله ان يحدث ضجة وان يثير الازهر وعلماء الدين بكتابه «الاخلاق عند الغزالي»، ولكنّ هذه الاثارة كانت سريعة الخمود، لان غايته فيها لم تكن علمية محضة[1]، وإذا كان طه حسين يذكر ان اساتذته في الازهر قد اسقطوه في امتحان «العالمية» ظلما[2]، فقد كان يحلو لزكي مبارك ان يذكر بأنّ أستاذه طه حسين قد اسقطه في امتحان «الليسانس» مرتين ظلما أيضا، ويذكر هذا احيانا في شيء من الزهو المقرون بالتحدي الادبي واظهار التفوّق ولكن في اطار من المرح، والاسلوب اللطيف الذي ينتزع الضحك، نحو قوله: «إن الدكتور طه حسين أستاذي، ألم تسمعوا انه اسقطني في امتحانات «الليسانس» مرتين؟ إن القصيدة الآتية هي القول الفصل،

(١) انظر «حديث الاربعاء» ٦٦، ج٣.
وانظر كتاب «المعارك الأدبية» لأنور الجندي، ص٦٤٢ ٦٤٤.
(٢) انظر مذكرات طه حسين: ٢٣ - ٢٥.

فليعارضها الدكتور ان كان يطيق ولن يطيق ألوف الشعراء ولو اعتصموا بشواهق الجبال»(١) او قوله عنه «هذا رجل من رجال الجامعة المصرية، ولاعيب على الاستاذ في ان ينتصر عليه نوابغ التلاميذ، فهو صاحب الفضل الاول»(٢).

وإذا كان الذي يهمنا هو ما يتصل بالنقد الادبي، فإن ثمة امرين يتعلقان بطه حسين وزكي مبارك، نرى أن لهما دلالتهما النقدية ويلفتان، وان لم يلتفت اليهما أي دارس: وأولهما ان زكي مبارك كان يتبنى بعض آراء طه حسين النقدية ثم يوردها وكأنها له وكأنه أول من توصل اليها، دون اشارة الى طه حسين، ومثال هذا أنه اعرب عن اعتقاده بان ثمة صله فنية بين ابي تمام وكثيّر عزة، ثم ذهب في توضيح هذه الصلة الى القول: «وأنا أرى أن مسلما تلميذ كثيّر بن عبد الرحمن، وسيثبت الباحثون صحة هذا الافتراض، وساثبته بقلمي إن أحياني الله الى ان أتمم كتابي (صريع الغواني)»(٣).

وهذا الراي هو بعض راي اشمل وأعمق، كان طه حسين قد ذهب اليه في عام١٩٢٧، اذ نراه يجهر بانه اكتشف مدرسة شعرية قديمة، بدأت في العصر الجاهلي، وكان رأسها أوسا وزهيرا، ثم ضربت بجذورها في العصر العباسي، وقد تتابع تلاميذها خلال ذلك، فكان منهم في العصر الاموي جميل بثينه وراويته كثير، وكان منهم

(١) زكي مبارك، ألحان الخلود ٣٢٥ .
(٢) المصدر نفسه: ٣٢٥ .
(٣) المصدر نفسه: ٢٥ – ٢٦ .

في العصر العباسي مسلم بن الوليد وابو تمام والمتنبي[1].

وثاني هذين الامرين أن زكي مبارك نشر في عام١٩٤٠ مقالة ضمنها رسالة بعثها طه حسين اليه في عام١٩٢٥، ردا على رسالة كان زكي قد ارسلها اليه، يخبره فيها أنه أخذ يكتب حول دراسته في فلسفة ابن خلدون فلنتأمل ماذا يرجو طه حسين من زكي مبارك أن يلتزم به في اثناء كتابته عنه، قال في رسالته الخاصة: «..كل ما ارجوه ان تصدر في ما تكتبه عن الحرية الصادقة القاسية، لاعن الإخاء والمودة، اللذين يدفعان في كثير من الاحيان الى شيء من الرفق الذي لايخلو من إثم، وأنا أعيذ أصدقائي أن يتورطوا من اجلي في إثم الاسراف في البر، كما أكره أن يتورطوا في إثم العقوق»[2].

وكان قبل هذا قد قلّل في الرسالة نفسها من شان دراسته في فلسفة ابن خلدون، قائلا له: «لست أدري كيف اشكر لك عنايتك بفلسفة ابن خلدون، وأنا مقتنع مابيني وبين نفسي بأنها لاتستحق هذه العناية»[3].

واذن فهو لايلحّ أو لايشجع أصدقاءه النقاد على الكتابة عن دراساته، وانما يحاول في تواضع ان يقنعهم بانها لاتستحق منهم العناية، حتى اذا شرعوا يكتبون، حذّرهم من ان يتورطوا في الثناء الكاذب مجاملة ومحاباة، لافتا الى ان هذا «لا يخلو من إثم»، راجيا

(١) في الأدب الجاهلي: ٢٧٢ .
(٢) زكي مبارك، احمد الله اليك، ص ١١٥٥ ١١٥٦ مجلة الرسالة، عدد (٣٧٦) ١٥ يوليه، ١٩٤٠
(٣) المصدر نفسه: ١١٥٦

ان يكونوا احرارا في نقده، صادقين في ذلك، بل قساة في الحق، يطلب اليهم هذا كله في الخفاء ومن خلال رسالة خاصة، واذا تذكرنا بانه في بداية عام١٩٢٥، قد ترك دراسة الغزلين الامويين، واتـجه الى دراسة الادباء المعاصرين، وأنه أخذ يردد مثل هذا الكلام الذي قاله لزكي مبارك في نقده للرافعي والعقاد وسلامة موسى، بل كان يردده في نقده لاساتذته وأصدقائه من أمثال محمد الخضري ومحمد حسين هيكل وأحمد ضيف[١]، اذا تذكرنا هذا كله تحققنا من انه كان يؤمن حقا بحرية النقد، ولايتظاهر بها تظاهرا، لأن امرها عنده، يستوي فيه الجهر والسر، وسواء أكان ناقدا أم كان منقودا.

وثمة امر ثالث يمكن اضافته الى الأمرين السابقين، وهو أنّ خصوم طه حسين قد عُنوا بحملة زكي مبارك عليه مابين عام ١٩٣٤ وعام ١٩٣٦، واستغلوا ماقامت عليه من ادعاء لا أساس له[٢]، لتشويه صورته، أوحقيقة شخصيته،حتى عدّها بعضهم «أضخم معركة في تاريخ الادب العربي المعاصر، وسمّاها خصومة لقمة العيش»[٣] والحق ان حملته عليه لا تقلّ في عنفها وضراوتها عن حملة الرافعي عليه في عام١٩٢٦، او حملة محمود شاكر في عام١٩٣٧، واذا ما استثنينا أن زكي مبارك يتميز من الرافعي

(١) كان الدكتور احمد ضيف صديق طه حسين وزميله في الدراسة والتدريس، ولكنه حين تناول كتابه «بلاغة العرب في الاندلس» اخذ عليه تعجل الاحكام، والغموض والاهمال اللغوي، أنظر «حديث الاربعاء» ص٧٣ - ٧٧، ج٣

(٢) انظر «طه حسين يتحدث عن أعلام عصره»: ٤٩ - ٥٠

(٣) انظر «المعارك الادبية»: لأنور الجندي: ٦٧٠ .

ومحمود شاكر بأنه تلميذ طه حسين المعجب به، وأنه كان لا يلبث أن يؤوب الى الانصاف ويفيء الى الحق بين حين وآخر، فيمكن القول: إنّ الحملات الثلاث هي أقسى ما شنّه الادباء عليه واللافت أنها واحدة من حيث اسبابها وحججها النقدية، ومن حيث موقف طه حسين منها، فهي كلها قد بدأت لأن طه لم يجامل اصحابها من الناحية النقدية ولم يثن عليهم، وانما قرر إخفاق الرافعي الذريع في رسائل الاحزان[1]، وعرض لزكي مبارك، ومحمود شاكر في اسلوب المتجاهل والمستصغر لشأنيهما الادبي والنقدي، كما انها جميعاً قد قامت نقديا على تهمة واحدة وهي القول: إن طه حسين عيال في آرائه النقدية على غيره، أو على المستشرقين خاصة، وهنا ينبغي ان نتنبّه الى أن هذه التهمة كانت تطلق جزافا، ويكتفي اصحابها بترديدها ترديدا كلاميا ليس غير، فما من واحد من الادباء الثلاثة حاول ان يعمد الى الدراسة العلمية لإثباتها، على ان الدراسة الحرة البريئة والزمن ايضا قد تكفلا باثبات تهافتها، فلعلنا لاحظنا من خلال هذا البحث أنّ طه حسين كان لايتردد في ان يتصدى لبعض آراء المستشرقين وغيرهم من الاوروبيين، حين يجدها تحيد عن الحق، وتجور على الادب العربي أو على العرب، فقد نبّه وهو يحاول أن يثبت الوحدة المعنوية في الشعر العربي القديم الى ان الذي أشاع التهمة الزائفة هم مستشرقون[2]، وهو في دراسته المتنبي قد أثبت خطأ «بلاشير» الذي عد شعر ابي الطيب في الجهاد شعرا قصصيا، ولم يدرك الفرق الدقيق الذي يردّه الى شعر الغناء[3]، كما

(١) انظر «حديث الاربعاء»: ١٢٠ ١٣٠، ج٣ .
(٢) أنظر «في الادب الجاهلي»: ٢٠٥ .
(٣) انظر «مع المتنبي»: ١٧٠

نبّه الى غفلته عن ملامح التطور في شعر المتنبي الاخير، التي جعلته يقترب من الشعر الاوروبي[1]، بل رايناه لايتردد في ان يردّ السبب الذي جعله لايقدّر شعر الجهاد الى عصبيته لنصرانيته[2]، وفي محاورته توفيقاً الحكيم رأينا كيف نبّهه الى أن آراءه في العرب،: ادبهم وفنهم وفكرهم هي آراء غير سديدة، قائلا له: «قد ذهب الى مثل ما ذهبت جماعة من المستشرقين منهم دوزي ورينان، وأحسبكم جميعا تظلمون العرب ظلما شديدا، وتقضون في أمرهم بغير الحق»[3].

واذن فالدراسة الحرة البريئة تثبت أن شخصية طه حسين أقوى من أن تبهر بالمستشرقين، وتسلم لهم دائما بوجاهة آرائهم، فضلا عن انتهابها، والزمن يساعد في إثبات هذا ايضا، فبعد حوالي نصف قرن من إشاعة الرافعي وأنصاره هذه التهمة، وبعد موت طه حسين، نشرت زوجه بعض أوراقها الخاصة في كتابها الذي ألفته عنه بالفرنسية، ومن بينها كانت رسالة بعثها طه حسين، اليها من مصر، وكانت هي في فرنسا، وذلك في عام١٩٢٥، فلنتامل ماذا يخبرها فيها، يقول لها: «أبحاثي الشخصية تصل بي الى نتائج كبار المستشرقين نفسها، اتدرين أنني قررت ألا أقرأ أبحاثهم إلابعد أن انجز ابحاثي، لكي اكون على علم بها فقط»[4].

(١) انظر «مع المتنبي»: ٣٤٧

(٢) المصدر نفسه: ١٦٩ .

(٣) طه حسين، الى الاستاذ توفيق الحكيم، مجلة الرسالة: ٧ عدد (١١) سنة ١٩٣٣

(٤) سوزان طه حسين، معك، ٧٦

وأما موقف طه حسين من حملة زكي مبارك عليه فهو شبيه أيضاً بموقفه الذي رأيناه يقفه من حملتي الرافعي ومحمود شاكر، إذ لم يرد على مقالاته الهجومية الكثيرة ولو بمقالة واحدة، لانه رآه فيها يحيد عن سبيل العلم، ولايلتزم بادب الحوار، وانما يعمد الى الاسفاف والملاحاة ويمكن القول: انه موقف التزم به مع كل خصم جنح الى الاسلوب نفسه، حتى لفت هذا زوجه، فلاحظت أنه لم يرد البتة على ما وجه اليه من شتائم شخصية[1]، والحق ان طه حسين يصدر في هذا الموقف عن رأى بعينه، ظلّ يؤمن به طوال حياته، وهو رأى خليق أن يلتزم به كل ناقد أدبي يحترم رسالته النقدية، وقد اعرب عن هذا الراي مبكرا، بعد عودته من فرنسا، اذبين في عام١٩٢٢ متى يرحب بالمحاورة النقدية، ومتى يحجم عن الدخول فيها، فقال: «.. مازلت انتظر نقد الناقد المخلص، لايدعوه الى نقده إلّا حب العلم، والرغبة في الاصلاح، فاما هذا الذي يبغضك، ويحقد عليك، فيتخذ النقد سبيلا الى ايذائك، والنيل منك فخليق بك أن تتركه وشأنه، وأن تنصرف عنه الى ما ينفع ويفيد»[2].



(١) معك: ١٢٠ .

(٢) طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء المعري: ٣٦٤، المجلد الثالث من دراساته المجموعة.

محاورة محمود شاكر

في عام ١٩٣٤ كثرت البحوث والدراسات في شاعر العربية الاكبرأبي الطيب المتنبي، وذلك لمرور الف سنة على وفاته، وعلى الرغم من انّ الدكتور طه حسين لم يكن من المعجبين به، فانّ كثرة هذه البحوث والدراسات قد جعلته في عام ١٩٣٦ يستشعر ميلا الى الكتابة عنه، فكان أن وضع فيه كتابه الموسوم «مع المتنبي»، وقد بين في مقدمته الدافع الى كتابته بقوله: «لأني حاولت وما زلت احاول ان استكشف السر في حب المحدثين له، وإقبالهم عليه، واسرافهم في هذا الحب والاقبال، كما اسرف القدماء في العناية به حبا وبغضا، واقبالا وإعراضا ...».

ولقد كتب طه حسين كتابه خلال اجازة صيفية في فرنسا، وأنجزه في سرعة فائقه، اذ انّه استغرق منه حوالي شهر، على الرغم من انه كتاب ضخم، يقع في اكثر من ثلاث مئة وخمسين صفحة من القطع الكبيرة. ودارس الكتاب المتعمق يتحقق من صدق طه حسين اذ يقول عنه في مقدمته: انه في بدايته لم يقصد فيه الى الجد، وان فيه الكثير من الخواطر المرسلة، التي خطرت له، وهو في احدى قرى الالب الفرنسية، وقد يحار هذا الدارس في هذه الدراسة التي يختلط فيها اللعب بالجد، ويمتزج العبث بصدق القصد، فلا يدري ماذا يقول فيها، ولكنه يبتسم حين يلمح طه حسين نفسه يهيب به مشجعا في غير مبالاة: «.. قل ما تشاء في هذا الكلام الذي

تقرأه، قل: انه كلام يمليه رجل يفكر فيما يقول، وقل: انه كلام يصدر عن رأى وأناة، وقل: انه كلام يصدر عن شذوذ وجموح، فأنت محق في هذا كله، لأني مرسل نفسي على سجيتها ...»[1].

وحين نتساءل عن السبب الذي دعاه الى أن يعمد الى شيء من الهزل في دراسة هذا الشاعر الجاد، نجده يجيبنا في نهاية الكتاب بقوله: «... أريد أن أداعب المتنبي وأداعب خصومه وأصدقاءه جميعا ... »[1].

فهل دار بخلد عميد الادب أنه سيجر بهذه المداعبة على نفسه عداوة شديدة، أو سيثير حملة شعواء قاسية، كان في غنى عنها، لانه كان يتعرض في ذلك الوقت لهجمة عنيفة ضارية، يشنها عليه تلميذه وسكرتيره السابق الدكتور زكي مبارك؟! وقد كانت المفاجأة أن كاتبا، كان ما يزال ناشئا قد طلع على القراء بسلسلة من المقالات النارية، راح فيها يهاجم طه حسين هجوما عنيفا، ويكيل التهم له الوانا، وكان هذا الكاتب هو الاستاذ محمود محمد شاكر، الذي كان قد وضع في المتنبي دراسة عام١٩٣٦، ونشرها في مجلة المقتطف، ثم عاد بعد وفاة طه حسين، فجمع ما كتب من مقالات هجومية قبل حوالي اربعين عاما، ثم نشرها ودراسته السابقة في كتاب خاص بعنوان «المتنبي»، وأكد في مقدمته أنه ما زال على موقفه من طه حسين، كما ورد قديما في هذه المقالات، مما يجعل

(١) مع المتنبي: ص١٧، من مجلد دراسات طه حسين، المجلد الثالث، دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٤ .

(٢) المصدر نفسه: ص٣٤٥ .

القضية جديرة بالمناقشة، وخليقة بأن تقال فيها كلمة حق بريئة، .. ويلاحظ أنه يمكن تناول القضية من وجهتين: الاولى مقومات تهمة السرقة، التي وجهها محمود شاكر الى طه حسين، ... والثانية الاسلوب الذي عمد اليه محمود شاكر في توجيهها، وفي نقده لطه حسين عامة، ثم موقف طه حسين من هذا الهجوم كلّه.

أما التهمة فلا ريب في انها تبدو غريبة، لأن القارىء لا يلمح ايّ تاثر وتأثير بين كلتا الدراستين، فبينما يذهب محمود شاكر الى القول: «.. ازعم أن والد المتنبي كان علويا ينتهي نسبه الى علي بن ابي طالب... »[1]، نجد طه حسين يذهب الى ان أبا الطيب كان وضيع النسب «... وأن شعور المتنبي بهذه الضعة، او بهذا الضعف من ناحية اسرته وأهله الادنين قد كان العنصر الاول الذي اثر في شخصية المتنبي ...»[2] ... ومحمود شاكر يرى أن ثمة علاقة حب، قد ربطت بين المتنبي وبين خولة اخت سيف الدولة، على حين أن طه حسين يقصد الى هذا الرأي بعينه، فيرفضه، ويدحضه، لانه يرى أن قصيدة المتنبي التي رثتها «.. يفهم منها أنّ الشاعر يتحدث بأن هذه الفقيدة برّته، وأحسنت اليه عن بعد، كما كانت تحسن الى غيره من القصاد وأهل الادب ..»[3]، ثم يربط طه حسين بين رأيه هذا ورأي محمود شاكر السابق، فيشير اليه في صيغة لغويـة توحي بالتجاهـل، واستصغار الشان، قائلا

(١) المتنبي: ص٤٣، نشر مطبعة المدني، القاهرة ١٩٧٧ .
(٢) المصدر نفسه: ص٢٨
(٣) مع المتنبي: ص٢٠١ .

«.. والفرق عظيم على كل حال بينه (يقصد رأيه)، وبين رأي من رأى أن قد كان بين الشاعر وبينها حب أو ما يشبه الحب ...»[1].

لكن الناشر مع هذا يشير صراحة الى محمود شاكر ودراسته، في الحاشية، وهكذا يمضي القارىء المتامل محاولا أن يلمح اي تشابه لافت في اسلوبي معالجة الموضوع الواحد، لكنه لايلمح شينا يلفته، مما يجعله يواصل في تشوق قراءة المقالات التي كتبها محمود شاكر، ليرى كيف سيقيم دعواه، أو كيف سيثبتها، ولكنه يقرأ ما كتبه كله في أناة، المرة تلو المرة، ويتأمله الحين بعد الحين، ليفجأ في النهاية بانه لايورد شينا مقنعا، يمكن ان يقيم الدعوى، فضلاً عن اثبات صحتها، ذلك أنه يبدأ القول وينهيه ليعيده، مكررا القول: ان طه حسين قد سرق من دراسته، فهو اذن لص سارق فحسب، ومع انه لايبيّن ما أخذه من آرائه، فانه يقول: «الدكتور لم يعط رأيا، وانما اخذ رأيا لم يحسن فهمه، ولاعرف موقعه من الكلام ..»[2]، وهو لايدلّنا على المواضع التي أخذها طه حسين من كتابه، على الرغم من قوله «.. ندلّه على المواضع التي أخذها من كتابنا في هذا الفصل، وافسدها على الناس، لأنه أراد أن يحاكي فخذلته المحاكاة، وأراد أن يقلد فخانه التقليد ...»[3].

(١) مع المتنبي: ص٢٠١ .
(٢) محمود شاكر، المتنبي: ص٢٥
(٣) المصدر نفسه: ص٢٥

على انه يذهب الى أنه أول من شك في نسب المتنبي، اذ رأى أنه شريف علوي، ولهذا نجده يقول في شيء من الزهو «... ذهبت في الرأي مذهبا لم اسبق اليه ... ص ٣٣»،، وهنا ينبغي ملاحظة أن من اليسير على الدارس أن يأتي برأي لم يسبق اليه، وانما العسير حقا هو أن يسبق الى رأي تثبت صحته، ويسلّم به الدارسون الآخرون بهذه الصحة والسبق، وان يتابعوه عليه وقد نتساءل ماذا أخذ طه حسين من هذا الرأي الذي يقول محمود شاكر إنه سبق اليه، وهو الذي ذهب الى نقيضه ودحضه - على نحو ما رأينا -؟ فيجيب حينئذ أن طه حسين قد سطا على شكه نفسه، ذلك انه حين شك في نسب المتنبي، انما «.. شك لأن انسانا قبله سبقه الى هذا الشك ...»[1]، ومع أنه لا يُري القارىء أيّ شيء يثبت ان طه حسين قد أخذ منه او من الدارسين الآخرين من امثال بلاشير وعبد الوهاب عزّام، فانه يخلص الى القول: «.. وبعد فقد رأينا كيف كان كتاب الدكتور طه يتقمم الآراء من هنا وهناك، ليشك، وليثبت أنه هو الذي بدأ الشك في نسب ابي الطيب ..»[2]، وهنا ينبغي ملاحظة اشياء عدة: أولها أن الشك في ذاته منهج قديم، لايستطيع دارس بعينه ان يدعي ملكيته له، أو اسبقيته اليه ... وثانيها ان طه حسين لم يزعم قط أنه أول من شك في نسب المتنبي، كي يحاول ان يثبت انه أول من بدأه من خلال تقمم الآراء - على حد تعبير الاستاذ شاكر -، ومعنى هذا انه يسلم ضمنيا

(١) المتنبي: ص٣٤
(٢) المصدر نفسه: ص٣٥

لغيره من الدارسين بأنه يمكن أن يكون قد سبقه الى الشك في نسب المتنبي، ... وثالثها أنه أهمل رأى محمود شاكر اهمالا تاما، وكأنه رآه غير خليق بالالتفات، فضلا عن المناقشة، لأنه يرى رأيا مناقضا له، ... ورابعها ان طه حسين في عام ١٩٣٦، وهو في هذا الطور من حياته الادبية، لم يكن في حاجة البتة الى دارس ناشىء من تلاميذه، كي يلهمه الشك في دراسته المتنبي، وهو الذي كان قد أقام شهرته الادبية العريضة عليه في الغالب، واحسب انه أشهر دارس عرفه الادب العربي في القديم أو الحديث قد نادى بمنهج الشك في الدراسات الادبية، منذ أن بدأ شكّه الديكارتي في دراسته الغزلين الامويين عام١٩٢٤، حتى انتهى الى شكه الشهير في الشعر الجاهلي عام١٩٢٦، فأثار ضجة علمية في دراسة الادب العربي القديم، لم تفقها ضجة أخرى من قبل أو من بعد، في وقت لم يكن فيه محمود شاكر في ميدان الدراسات الادبية شيئا مذكورا .

اما الحوافز التي دفعت الاستاذ محمود شاكر الى كتابة مقالاته الهجومية فهي في الغالب اربعة: أولها أن طه حسين حين أوما الى رايه لم يشا ان يذكر اسمه صريحا في متن دراسته، وانما صاغ العبارة صياغة من يميل الى الاعراض عن ذكره، لأنه لم يكن في ذلك الوقت نابها، أو لسبب آخر، على حين نجده عندما يلتفت الى دارسين مشهورين من امثال بلاشير والدكتور عبد الوهاب عزّام لايكتفي بالتصريح بأسمائهم، وإنما يذكر قبلها القابا وصفات توحي بتقديره ومودته، ومثال هذا أنه حين انكر على عبد الوهاب عزّام تفضيله لشعر الجهاد على الشعر القصصي كله، لم يومىء اليه

إيماءً غامضا، وانما قال: «.. أخالف صديقي الدكتور عبد الوهاب عزام أشد الخلاف فيما ذهب اليه من تقديم هذا الفن من شعر المتنبي على الشعر القصصي القديم كله ... »[1]. وقد خالف أيضا بلاشير، وعرض له بالنقد ثلاث مرات في مواضع متفرقة من دراسته، الاولى حين لاحظ أنه لايقدر شعر الجهاد حق قدره، وكأنه متاثر بنصرانيته، ... والثانية حين لاحظ انخداعه بشعر المتنبي الحماسي، وتسميته اياه بالقصص، ... والثالثة اذ غفل عن ملامح التطور في شعر المتنبي الذي قاله في شيراز، مع أنّه أوروبي، لكنه في كل مرة كان يذكر اسمه خلال متن الدراسة صراحة، وفي شيء من التقدير، ونحسب ان تجاهل محمود شاكر بالقياس الى هذا لم يرق له، وهو الدارس الشاب المتلىء بالثقة والاعتداد، كما يبدو في مقالاته، وقد يكون السبب الذي دفع طه حسين الى أسلوبه المتجاهل أنه لم يكن راضيا عن تلميذه محمود شاكر، يساعدنا في قول هذا انه قد لجأ الى الاسلوب نفسه عام١٩٣٤، حين اشار الى كتاب تلميذه الشكس الدكتور زكي مبارك «النثر الفني في القرن الرابع»، فأثار به سخط الدكتور زكي صراحة، وجعله يندفع في خصومته له، التي كانت ما زالت في بدايتها، ... وثاني هذه الحوافز أن محمود شاكر كان يرمي من هجومه على طه حسين الى ما يرمي اليه في الغالب الكاتب الناشيء من تعرضه للاديب الكبير المشهور، وهو لفت القراء اليه، وتحقيق قدر من الشهرة، وهذا أسلوب قديم معروف، لجأ اليه كثير من كتاب العربية وأدبائها،

(١) مع المتنبي، ص ١٦٩

ومنهم طه حسين نفسه، فقد تعرض في بداية حياته الادبية للمنفلوطي والرافعي وأمثالهما، ... وثالث الحوافز أن آراء طه حسين في شخصية المتنبي وشعره قد أثارت استنكار محمود شاكر وسخطه، بوصفه احد المعجبين بالشاعر، وبوصفه أيضا دارسا سابقا له، قد ذهب مذاهب مغايرة لتلك الآراء، ... ورابع الحوافز - وأحسبه أقواها - أن محمود شاكر من الوجهة الادبية والفكرية من مدرسة الرافعي، التي تعادي طه حسين ومدرسته، لانقول هذا استنتاجا، وانما نعتمد فيه على اعتراف محمود شاكر نفسه، ذلك انه في مقدمة الكتاب ينعت الرافعي بأنه استاذه، وصديقه، ويقر بأن حملته على طه حسين لم تتوقف الا حين مات الرافعي في عام١٩٣٧، مما يوحي بأن الرافعي قد يكون من ورائها .

وأما اسلوبه في مقالاته فيميل الى الحدة الشديدة، ولتنظر اليه كيف يصف أحد الفصول في كتاب طه حسين قائلا: «... عرفت أن هذا الفصل (وحل) كله، وليس فيه من جهد الفكر الا جهد الاحتيال، وارادة التلبس، والتمويه على البسطاء ...»[1] ولننظر اليه كيف يقول عنه أويخاطبه: «... مسكين هذا الدكتور طه ... الافاعلم أنّه أراد أن يخالفني أنا وحدي ... ص١١٠» و«... أنا أشهد والدكتور الجليل يشهد معي أنه أعجز الناس عن النقد، ثم أبلغهم عجزا عن نقدي أنا ... ص٧٨» وهو «... متخلف الفهم في العربية مضطرب الفكر والمنطق لابصر له بالشعر، ولاطاقة له على استيعاب معانيه، وما دام الامر كذلك فهو لاقدرة له على استنباط المعاني من

(١) محمود شاكر: المتنبي، ص٦٦ .

الشعر ... ص٨٨» و«.. اسمع ياسيدي الدكتور: انك لرجل كثير المغالطة، شديد اللدد، غير مستقيم الرأي، مضطرب التفكير، متخلف النظر ..ص٧٦»[١] وقد نلحظ أنه يعرض بآفته، وهو ينقده، نحو رده على قول طه حسين: ان المتنبي لم يذكر في شعره والديه او والد جدته، فهو يساله متهكما: ماذا يريده أن يقول عن والد جدته «.. هل هو ازرق الحدقة أم أسودها، وهل هو اعمى ام مبصر؟ .. ٧٦»، ولعلنا لاحظنا أن ضمير المتكلم المنفصل «أنا» بارز في العبارات السابقة، والحق أنه لافت في كثير من عبارات المقالات، نحو قوله ايضا: «... ان هذا الرجل عاجز عن النقد، ثم هو أبلغ عجزا حين ينقدني أنا خاصة ..ص١١١» وقوله عن دارسي المتنبي كلهم «... ان أحدا من هؤلاء جميعا، لم يقف عند بيت واحد، مما وقفت عنده وتكلمت فيه، وتأولت معناه، ووصلته بتاريخ الرجل، وان أحدا من هؤلاء لم يستنبط من هذا الشعر الذي تدبرته شيئا من الذي استنبطته «أنا» من الحالات النفسية والعقلية، التي كانت تعتلج في صدر المتنبي وفكره ... ص٩٧»[٢].

ولقد تجاهل طه حسين هجوم محمود شاكر عليه تجاهلا تاما، وحين لاحظ محمود شاكر أنّه لم يرد على مقالاته البتة، استخلص من هذا أنه عاجز عن مواجهته، ولذا كرر القول كثيرا: انه «أبلغ الناس عجزا عن نقدي (أنا) خاصة ... ص٧٨، ص١١١» وكانه لم يكن يعلم ان طه حسين منذ عام١٩٢٢ قد رحب باي حوار نقدي

(١) محمود شاكر، المتنبي: الصفحات: ٧٨، ٨٨، ٧٦، ١١٠
(٢) انظر المصدر نفسه: الصفحات: ٧٦، ١١١، ٩٧

علمي نافع، وجهر في الوقت نفسه بأنه لن يرد على من يهاجمه هجوما، قوامه الايذاء والملاحاة، ولذا فقد أمسك عن الرد على الرافعي عام١٩٢٦، حينما رآه يجنح عن الاسلوب الادبي والعلمي في النقد، كذلك لم يردّ البتة على حملات الدكتور زكي مبارك مابين عام١٩٣٤ وعام١٩٣٧، لأنه رآه فيها يسفّ كل الاسفاف، قال طه حسين في مقدمة كتابه «ذكرى ابي العلاء»، حين أعاد طباعته عام١٩٢٢، يبين متى يرد على نقد ناقده، ومتى يمسك عن الرد: «... ما زلت انتظر نقد الناقد المخلص، لايدعوه الى نقده الاحب العلم، والرغبة في الاصلاح، واما هذا الذي يبغضك، ويحقد عليك، فيتخذ النقد سبيلا الى ايذائك، والنيل منك، فخليق بك أن تتركه وشأنه، وأن تنصرف عنه الى ما ينفع ويفيد ...ص٣٦٤»[1].

وبعد ... فلا ريب في أن القارىء المثقف يستهجن أن يعمد الاستاذ محمود شاكر الى هذا الاسلوب المغالي في النقد، ذلك أنه باحث جليل، ومحقق بارع، ودارس مشهود له بأنه أسدى خدمة كبيرة لتراثنا الادبي، وقد كان يمكن ان نعتد ذلك منه عملا من طيش الشباب وتهوره، لولا أنه عاد فجمع مقالاته - كما قلنا - بعد اربعين سنة، وأصر على انه ما يزال على موقفه منها، ولولا انه قبل سنوات قليلة قد ردّ على الدكتور عبد العزيز المقالح ردا حادا في مجلة العربي، وذلك في عام١٩٨٢، حين نشر الدكتور المقالح دراسة حول طه حسين وشكه الازهري، وألمح فيها الى أن محمود شاكر ممن أشاعوا الاتهامات الباطلة عن عميد الادب العربي، فقد أكد

(١) طه حسين: ذكرى أبي العلاء المعري، ٣٦٤

الاستاذ محمود شاكر في رده ان طه حسين قد سطا على دراسته في المتنبي، كما سطا على شك مرجوليوث في الشعر الجاهلي، وعندي أنّ كلتا التهمتين باطلة، ولا أساس لهما من الصحة... والحق انه قد كان من العسير علينا أن نصف أسلوبه النقدي في مقالاته بعبارة أو اكثر وصفاً دقيقاً صائباً، لولا انه في كتابه نفسه قد أثبت محاورة نقدية دارت بينه بين الاستاذ سعيد الأفغاني، وإذ بالأفغاني يسعفنا في وصف أسلوب الأستاذ محمود شاكر أصدق وصف، إذ يقول عنه: إنه «.. أليق بمظاهرة هتافية، ينادي فيها بسقوط فلان وفلان، منه ببحث علمي، العمدة فيه الحجة والبرهان ...ص٢٠٤»[1].



(١) انظر كتاب محمود شاكر ، المتنبي: ص٢٠٤ .

التاريخ بين طه حسين ورفيق العظم

من المحاورات القليلة المهمة، التي حرص طه حسين على إثباتها في كتابه «حديث الاربعاء»، بعد ان رتّب أجزاءه الثلاثة الترتيب النهائي، محاوراته للمفكر الاستاذ رفيق العظم، ذلك أنه أثبت في كتابه المقالة التي وجهها اليه الاستاذ العظم، والتي نشرت في صحيفة السياسة عام ١٩٢٣، .. ثم اثبت بعدها رده على ما جاء فيها، ولاريب أن المحاورة بين الاثنين لها اهميتها الخاصة، ذلك انها جرت في جو من المودة والاحترام المتبادل، على الرغم من اختلاف الرأي؛ ولأنها دارت حول قضية مختلفة عن القضايا السابقة، ألا وهي .. كيف ينظر الكاتب الى التاريخ.

وقد بدأت المحاورة بين المفكرين الكبيرين، حيث بعث رفيق العظم رسالة في مقالة الى طه حسين، يعلق فيها على ما كان ينشره تباعاً خلال ذلك الوقت في صحيفة السياسة، حول شعراء اللذّة والمجون العباسيين، من أمثال: بشار وأبي نواس ومسلم بن الوليد، فقد ذهب من خلال دراساته فيهم، أنهم كانوا يمثلون عصرهم أصدق تمثيل، ولذا نجد رفيق العظم يبدأ مقالته التي جعل عنوانها «الى طه حسين» بعبارة رقيقة، ثم يهجم سريعاً على الهدف من

كتابتها فيقول: «ومما يلفت النظر، ويستدعي التمحيص والحذر في أحاديث «حديث الاربعاء» حكمكم ان أبا نواس أو من في طبقته أو على شاكلته من الشعراء، كانوا مثلاً صادقاً للعصر الذي عاشوا فيه، وأن الرشيد والمأمون ذهبا من الشك والاستمتاع باللذائذ في ذلك العصر مذهب أبي نواس وأضرابه من شعراء المجون ...» وهو يرى أن هذا الحكم المستنتج متعجل، يحتاج من طه حسين الى إعادة نظر، فحقائق التاريخ الاسلامي خاصة، كالدر الملقى بين الاشواك يحتاج مستخرجها الى أناة وروية وحذر، على نحوما فعل نقلة الأحاديث النبوية، وهو يرى أن تشويه هذه الحقائق، قد جاءها من طرق عدة، أهمها انقسام المسلمين شيعاً وأحزاباً، .. فشيعة العباسيين قد شوّهوا تاريخ خصومهم الامويين وعصرهم، والشعوبية كان لها دورها في تشويه العرب وحكمهم، وهو يلفت طه حسين الى موقف المؤرّخ ابن خلدون، الذي أنكر الحكايات الشائنة الملفقة على الرشيد، ودعا الى الحذر في هذه الحكايات، ثم ينتقل الى طريقة أخرى، فيبين ان التشويه قد جاء هذه الحقائق من القصّاص ثانياً، لأسباب تجارية وسياسية ودينية، وذلك كي يصرفوا العامة عن الخوض في أمور الصحابة والتابعين، لانّ هذا الخوض كثيراً ما كان يؤدي الى التنازع بين السنة والشيعة، والى إهراق الدماء، مما دفع بعض العلماء والكتاب الى وضع كتب تلهي العامة، مثل كتب الفتوح، وعنترة، ثم أخذ هؤلاء القصاص يتنافسون في الكتابة عن أخبار العشاق والشعراء والكرماء والبخلاء، وكان كثير من هذه الاخبار ملفقاً، فلو صدقنا هذا التشويه والتلفيق لكان تاريخنا أسود، وهو المجيد، الذي نفاخر به، وإذن من الراجح أن القصص

المنسوبة الى أبي نواس وأمثاله هي موضوعة، لا تصلح أن تكون مقياساً لعصرهم، كما ذهب طه حسين، فأبو نواس كان رجلاً خطراً، وله جهوده في مضمار الحديث، ثم يخلص الاستاذ رفيق العظم في النهاية الى أن صفوة ما يريد قوله في الموضوع، هو: «أن اكثر ما نقل عن ابي نواس وأضرابه من شعراء المجون، انما هي روايات قصصية بعيدة عن الصحة، وانه لا يصح أن تتخذ دليلاً على حالة الأمة الروحية في ذلك العصر ...»

وقد حرص طه حسين على ان يرد على نقد رفيق العظم بمقالة جعل عنوانها «رد على نقد» بدأها بتحية رقيقة، إذ وصف المقالة التي حاولت نقد منهجه التاريخي بالقول: «.. ما زلت أذكر هذا المقال الرائع، الذي نشرته السياسة للأستاذ رفيق العظم، ووعدت بالرد عليه ص٦٣»، ثم ما لبث أن قرر أن الرد عليه مهم جداً، وذلك لأن رأي هذا الاستاذ يمثل جمهوراً كبيراً من العلماء ونظرتهم المحافظة الى التاريخ، ولذا فهو يبادر الى القول: «... الخلاف بينه وبيني جوهري جداً، وشديد جداً، هو يذهب مذهباً في التاريخ وفهمه، وأنا أذهب مذهباً آخر في التاريخ وفهمه، ويخيل اليّ ان ليس الى الاتفاق بين هذين المذهبين من سبيل .... ج٢ ص٦٣»

ويلاحظ ان طه حسين قد تناول في رده ثلاثة امور أساسية: وهي: كيف نفهم التاريخ؟ وما موقف المؤرّخين في عصر المجد..؟وما موقف المؤرخين في عصر الانحطاط؟

أما في حديثه عن التاريخ فهو يلاحظ ان رفيق العظم يمثل العلماء المحافظين في الشرق وهم الغالبية العظمى، وهؤلاء في رأيه

«يسبغون على التاريخ الاسلامي صفة من التقديس الديني، أو الذي يشبه الديني، تحول بين العقل وبين النظر فيه نظراً يعتمد على النقد والبحث العلمي الصحيح، فهم يؤمنون بمجد القدماء من العرب، وجلال خطرهم، وتقديس مكانتهم، وهم يضيفون اليهم كل خير، فهم ينزهونهم عن كل شر، وهم يصفونهم بجلائل الاعمال، ويرفعونهم عن الصغائر، وهم يتخذون ذلك قاعدة من قواعد البحث العلمي، ومقياساً من مقاييس النقد ... ص٦٣». .. وهو يرى أنه بسبب هذه النظرة التقديسية أو التنزيهية الى القدماء، يستنكر هؤلاء كل خبر يضاف الى الرشيد ، أو غيره من الخلفاء، من شانه ان يغض من مكانتهم، ولذا فهو يفضل للمحافظين أن ينظروا الى القدماء نظرتهم الى بشر، فيهم جوانب ضعف، وفيهم جوانب قوة، مثلهم مثل سائر البشر الآن،.. ثم ينتقل طه حسين في رده الى المؤرخ "ابن خلدون"، الذي استشهد به رفيق العظم، ويحسن بنا هنا التذكر أن طه حسين قد درس التاريخ في فرنسا، وأن رسالته فيه كانت عن "ابن خلدون" نفسه، ولذا فهو يصدر في ذكره له عن معرفة عميقة، وهو يقرر في البداية أنه يجل ابن خلدون ويكبره ولكنه يرى هذا المؤرخ الكبير إمام المحافظين في النظرة الى العرب القدماء "نظرة تقديس السلف وتنزيهه عن الصغائر ص٦٤".

وهو يرى أن هذا طور طبيعي من أطوار الحياة العقلية، والسياسية للناس، لا بد من أن يمروا به في كل أمة من الأمم، وهو طور يقوم على تنزيه القدماء وتمجيدهم، فابن خلدون في القسم

الأول من مقدمته يوضح منهجه التاريخي الممتاز، ويبين الأخطاء، التي يتورط فيها المؤرخون، ويستكشف قوانين قيّمة في النقد التاريخي، وهو في هذا كله يبدو مثلهم: " متأثر بمجد القدماء، وصلاح القدماء، وطهارة القدماء، وانحطاط المعاصرين، وفساد أخلاقهم وأحوالهم.. ص٦٥ " ثم يضرب مثلاً لهذا فيذكر محاولة ابن خلدون تصحيح نسب الأدارسة في المغرب الاقصى، فهو لم يعمد الى اي بحث علمي، كذلك يفعل حين يحاول أن يذود عن الرشيد الأخبار، التي تصفه بالعبث والمجون، فهو لم يحاول أن يعمد الى البحث العلمي، وإنما اكتفى بالقول: "... إن الرشيد كان يصلي مئة ركعة في اليوم، وكان يحج سنة ويغزو سنة، وإذا كان هذا شأنه، فليس من الممكن أن يعبث او أن يلهو ص٦٥".

وهو يأخذ على ابن خلدون التسليم بهذا، متناسياً أن من حق المؤرخين غيره أن يشكوا فيه، او من الممكن ان يجمع الرشيد بين العبادة والعبث، وهو يعلل سبب تغافل ابن خلدون عن هذا الحق العلمي بنظرته التقديسية للقدماء، ثم يضرب طه حسين مثلاً لهذه النظرة عند اليونان ايضاً، فيرى لنهم مثل العرب، أكثرهم محافظ، يمجّد تاريخه وينزهه، حتى إن المؤرخ "بلوتارك" وضع رسالة هاجم فيها "هيرودوت" المؤرخ الرائد، واتهمه بالكذب والافتراء، وقد شاعت هذه الرسالة عند القدماء، وأساءت الى أبي التاريخ "هيرودوت"؛ وذلك لأنه ".. اتهم قدماء اليونان وأبطالهم في الحروب الفارسية اليونانية بالنقائص المختلفة، فوصف بعضهم بالخيانة، وبعضهم بالغدر، وبعضهم بالجبن، وبعضهم بالرشوة،

فنهض (بلوتارك) للدفاع عن هؤلاء الابطال، فزعم أنّ أبا التاريخ كاذب، وأن هؤلاء الأبطال أرفع مكانة وأعلى منزلة، وأجل خطراً، من أن يقعوا في مثل هذه الآثام.. ص٦٦" وقد ظل شأن اليونان هكذا مع "هيرودوت"، وإذا استكشاف مناهج النقد الحديثة في التاريخ، يؤكد أيضاً "أن هيرودوت لم يكذب ولم يتكلف، وأن "بلوتارك" هو الذي تكلف تقديس الناس، وتبرئتهم مما لا يبرأ منه الناس... ص٦٦"

ويخلص طه حسين من هذا الى رأي علمي يقول: إن كل أمة ذات حضارة تاريخية، نجدها في طور الانحطاط تنظر الى مجد الأسلاف نظرة تقديس وإجلال، على حين وهي في طور المجد والقوة تنظر الى حكامها وأبطالها نظرة واقعية طبيعية، بوصفهم بشراً، فيهم الفضائل والنقائص، هذا ما حدث لبلوتارك الذي عاش في طور ذل اليونان، ولهيرودوت، الذي عاش في زمن قوتهم... وهذا ما حدث للعرب في عصر ابن خلدون، وفي عصرنا هذا، على حين كان العرب القدماء في عصور المجد والقوة، ينظرون نظرة واقعية الى حكامهم، كما تصورهم كتب الادب والتاريخ القديمة.

وطه حسين بعد هذا كله يعترف أنّ كثيراً من الاخبار مختلق ومنحول، ولكنه يقول: "ولكني لا أستطيع أن أومن بأنّ كل خبر يصف القدماء، بما لا يُرضي منحول، وأن كل خبر يصفهم بما يرضي صحيح.. ص٦٧" وهو يرى أنه يكفي أن يعرض لهذه الأخبار بالنقد والتمحيص، وفق المنهج الطبيعي الواقعي، الذي لا ينزه خلفاء بني أمية وبني العباس عن اللهو البتة، وهذا ما يفعله

الغربيون في عرضهم لتاريخهم، يقول: "·· لقد كان أغسطس ونيبروس ونيرون كبار الكهنة في روما، ولكنهم كانوا قياصرة أيضاً، وكانوا يؤدون للدين حقه، وكانوا يؤدون للدنيا حقها··ص٦٧" .

وكان لويس الرابع عشر والخامس عشر مظهراً لقوة المسيح في فرنسا، ومظهراً لمجون الفرنسيين في الوقت نفسه، ومثل هذا يمكن قوله عن الحكام عند جميع الأمم، فحياة الإنسان عامة، والحاكم خاصة هي مزاج من الجد واللهو، حتى في أصعب الحقب، فالثورة الفرنسية: "··· كانت تجري فيها أنهار من الدماء وانهار من الخمر، ···· والحرب العالمية الأولى كانت سلسلة مروعة من المجازر، ولكن أصوات المدافع ودويّها كانت لا تمنع أصوات المغنين والمغنيات والممثلين والممثلات من أن تصل الى آذان الجند، وكانت قوات المانيا ترقص أمام هؤلاء الجند (رقصة الموت) فتروعهم، فإذا سلموا منها وظفروا بوقت راحة، ذهبوا فاستمتعوا برقص الراقصات... ص٦٨" ··· وإذن علينا حين نقرأ التاريخ ان نفهم قانونين، وضعهما ابن خلدون، على أن نفهمهما أحسن من فهمه: الأول "·· أن الناس جميعاً متشابهون مهما تختلف أزمنتهم وأمكنتهم، وأن الناس جميعاً مختلفون، مهما تشتد بينهم وجوه الشبه··ص٦٩" .

وهكذا يخلص طه حسين من إيمانه بصحة هذين القانونين الى نتيجة ترجح أن القرن الثاني للهجرة، كان عصر شك ومجون، وأن امتزاج الأجناس فيه قد أدى الى الاضطراب، على نحو اضطراب العرب الآن بعد مخالطتهم الاوروبيين، ثم يختم طه حسين رده بدعوة الأستاذ رفيق العظم الى دراسة شعراء القرن الثاني وغيره،

على أنهم "أناس لا ملائكة" ثم يقول: "·· ولكني اخشى ألا يفعل الأستاذ هذا، لأنه اتـخذ لنفسه قاعدة تقديس القدماء، أما أنا فلا أقدس القدماء وإنما انظر اليهم، كما أنظر اليك والى نفسي، وأعلم انهم مـثـلـك ومـثـلي يجدون ويـمـزحـون، ويحسـنـون ويُسيئون···ص٧٠".

وهكذا يمكن القول: إن محاورة طه حسين لرفيق العظم، تكتسب أهميتها من أمرين: الأول أنها من المحاورات التي جرت في إطار من المودة والاحترام المتبادل، على الرغم من الاختلاف الشديد في الراي، وهو ما رأينا طه حسين يرحب به في أول الكتاب،··· والثاني انها تبين منهج طه حسين في فهم التاريخ، وفي فهمه لقوانينه، وهو العالم المتخصص به،··· ويلاحظ أن الخلاف بينه وبين رفيق العظم، أنه ينظر نظرة واقعية طبيعية اليه، على حين أن العظم يمثل المحافظين الذين ينظرون نظرة مثالية الى العرب القدماء،··· وقد ننتصر نحن هنا لهؤلاء بالقول: ما المانع أن ننظر الى العرب القدماء نظرة مثالية تنزيهية، فيكونوا قدوة لنا في هذا العصر، لنحتذي على مثالهم، وليكونوا حافزاً لنا على علو الهمة، ومحاولة النهوض والرقي من جديد ؟!

··· وحينئذ يخيل الينا أن طه حسين يجيب: ولكنّ في هذا تجاوزاً عن الحقيقة التي ينبغي أن ينشدها الباحث الحق، ذلك أن المثالية المطلقة في السلوك البشري مستحيلة والأجدى أن نعلم الأجيال الحاضرة أن لهو الإنسان واستمتاعه، لا يحول بينه وبين القيام بالأعمال البطولية المجيدة في أوقات جده، على نحو ما كان

القدماء يفعلون في عصورهم الزاهرة.

وبعد .. فاما أن نظرة طه حسين الواقعية الى التاريخ وفهم قوانينه هي صحيحة، فهذا الذي ما زالت تشهد به وقائع هذا العصر البارزة، التي حدثت بعد المحاورة في عام ١٩٢٣ ... واما أن الجنود في أقسى لحظاتهم، وهم يواجهون الموت الزؤام نجدهم يطلبون اللذة حقاً، فاكبر شاهد عليه، هذه القضية التي ظهرت أخيراً، حين زار رئيس وزراء اليابان كوريا عام ١٩٩٢، فكان أن تظاهرت عدد من النساء الكوريات يطالبن اليابان بتعويض مالي، ذلك أن قيادة القوات اليابانية قد ساقتهنّ سوقاً، وهن فتيات صغيرات في أثناء الحرب العالمية الثانية، للترفيه عن الجنود اليابانيين، الذين كانوا يخوضون غمار الحرب مع الأمريكيين، حتى إن اليابان قد اضطرت بسبب هذا الى تقديم اعتذار لكوريا في ١٣/١/١٩٩٢ عن هذا العمل المشين.

وأما أن الحاكم الممتاز، لا يمنعه لهوه من الجد في ساعة الروع، التي قد تدفعه الى الوقوف وقفة في غاية الخطر والحرج، فخير مثال له في هذا العصر الرئيس الأمريكي جون كنيدي، فهو بطل أزمة الصواريخ الكوبية، كما نعرف، وهي أخطر أزمة هددت البشرية في هذا العصر، وذلك إذ وجه كنيدي الى "خورتشيف" رئيس الاتحاد السوفياتي إنذاراً بأنه سيلجأ الى استعمال الاسلحة النووية، إن لم تسحب دولته صواريخها من كوبا، وذلك في أواخر عام ١٩٦٢، فكان أن اضطرت هذه الدولة العظمى الى الاستجابة لهذا الإنذار في ٧/١١/١٩٦٢ . ووافقت على سحب هذه الصواريخ بعد أن حبست

البشرية أنفاسها هلعا وفزعاً.

فقد ثبت الآن أن هذا الرئيس الجاد، قد كان صاحب عبث ومجون، بل قد كان زير نساء، حتى إن احدى عشيقاته كانت "مارلين مونرو" اشهر ممثلة إغراء عرفتها السينما في هذا العصر.

محاورات حول كتاب
مستقبل الثقافة في مصر

يعد الكتاب «مستقبل الثقافة في مصر» أحد الكتب القليلة المهمة، التي يثير بها بعض المحافظين الشبهة حول طه حسين، ونحسب أننا لا نعدو الحقيقة، إن قلنا: إن هذا الكتاب يأتي في هذا الأمر بعد كتاب «في الشعر الجاهلي»، ذلك اننا مازلنا نرى المحافظين يهاجمونه أعنف هجوم، من خلال هذا الكتاب بعينه، ... فهو عندهم فيه يدعو الى «تغريب» مصر وثقافتها، وقطع صلتها بالشرق وهجر العربية الفصحى، وقد ظل طه حسين يشعر حتى آخر لحظة في حياته أنه ظلم في هذا الكتاب من قبل هؤلاء الذين ما انفكوا يثيرون الشبهات حوله، إما لأنهم لم يقرأوه، وإما لأنهم لم يفهموه على وجهه، لسبب من الاسباب، وقد كان طه حسين يدعو الى المحاورة حول الكتاب، والى مناقشته فيه، وقد كتب سيد قطب كتاباً يرد عليه به، وقد قرأه على طه حسين، وحاوره فيه، ثم أذن له في نشره، ولكننا لسنا ندري الآن شيئاً عن هذا الكتاب[1].

ويمكن القول: إننا لانظفر بمحاورة منظمة بين طه حسين

(١) انظر المقابلة مع صهره د. محمد حسن الزيات، رامتان.. متحف في بيت العميد، مجلة العربي، العدد (٩٠٤)، ١٩٩٢ .

وبين كاتب آخر حوله ولكننا مع هذا نظفر بمحاورات غير منظمة بينه وبين جماعة من المحافظين في منتصف سنوات الخمسين، حين عاد عميد الادب ودعا الى توحيد التعليم الاولي والثانوي، وإصلاح نظم التعليم في الازهر، مردداً ما كان قد فصل القول فيه خلال كتاب «مستقبل الثقافة» فكان أن هبّ نفر من المحافظين فردوا عليه رداً عنيفاً، واتهموه أنه مازال يردد آراءه في كتابه «مستقبل الثقافة» الذي دعا فيه الى قطع الصلة بين مصر والشرق، بل اتهمه أحدهم بانه «مبشر» لفرنسا ليس غير، فآلمه هذا الاتهام ورد بمقالات عدة، ضمنها كتابه «نقد وإصلاح» وقد اتهمهم فيها بتحريف كلامه عن مواضعه، وببتره من سياقه الأصلي، متبعين اسلوب من يقرأ الآية الكريمة: «ولاتقربوا الصلاة».. ثم يسكت ولايكمل، ... ومهما يكن الامر فقد ظهر بعيد هذه المحاورات العنيفة كتابان، قد صوّرا التهم والردود، أما أحدهما فقد صوّر آراء بعض المهاجمين أحسن تصوير، وهو كتاب «الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر» للدكتور محمد محمد حسين، إذ فيه يُعيد كيل التهم ويؤكد صحتها من وجهة نظره، ... وأما الكتاب الثاني فهو كتاب يتضمن وجهة نظر طه حسين في هذه التهم، وهو كتابه السابق "نقد وإصلاح" ، ويُلاحظ هنا أن الكتابين قد ظهرا في وقت متقارب من عام ١٩٥٦ ٠

وما دام كتاب "مستقبل الثقافة في مصر" ما زال يثير حوله الجدل الخطير، وإذن فهو جدير من الدارس بالبحث الموضوعي المحايد، وإنّ التحقيق العلمي ليقتضي من هذا الدارس الباحث أن

يعرض أولاً لكل رأي من آراء المهاجمين للكتاب ، من خلال ما صوره الدكتور محمد محمد حسين في كتابه "الاتجاهات الوطنية" ، ثم من خلال دفاع طه حسين وردوده في كتاب "نقد وإصلاح"·· على أن يعود في النهاية الى كتاب " مستقبل الثقافة" ليتحقق من صحة تهم الخصوم والردود، وليتبين الحقيقة بريئة من التعصب أو الهوى·

لا ريب أن كتاب "الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر" هو من أشهر الكتب، التي شهّرت بطه حسين، ذلك أن مؤلفه الدكتور محمد محمد حسين كان أستاذاً للأدب العربي في جامعات عدة، وكان لا ينفك يقرر الكتاب على طلابه، ويمتحنهم فيه، مما ساعد على ترسيخ اتهاماته لطه حسين وكتابه "مستقبل الثقافة" في أذهان كثير من أجيال الطلاب العرب،··· والحق أن الدكتور محمد حسين في كتابه يمثل المغالين في المحافظة أشد تمثيل، ذلك أننا نجده فيه يتّهم كل من ينادي بالإصلاح أو التطور، ويشكّك في نياته، وأهدافه، حتى إنّ اتهاماته في كتابه لتطال الشيخين الكبيرين: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده·

ويلاحظ أن الدكتور محمد حسين حين عرض لكتاب "مستقبل الثقافة" قد ركز هجومه في ثلاث تُهم بعينها: الأولى موقف طه حسين من مصر: أهي من الغرب أم من الشرق؟ والثانية موقفه من التعليم في مختلف المدارس والمعاهد عامة، وفي الأزهر خاصة،·· والثالثة موقف طه حسين من اللغة الفصحى؟

أما التهمة الأولى فهي خطيرة حقاً، كما نرى، إذ لا يمكن لأي

عربي مسلم استساغتها، كما يصوغها الدكتور محمد حسين، حين يعرضها لنا، ذلك أن نصها يقول: إننا نجد في كتاب "مستقبل الثقافة"، ... الدعوة الى حمل مصر على الحضارة الغربية وطبعها بها، وقطع ما يربطها بقديمها وإسلامها..ص٢٢٩" [١].

.. ولكن الغريب أن المؤلف حين يحاول أن يقيم البيّنة على هذه التهمة، نجده يقتبس من كتاب "مستقبل الثقافة" اقتباسات عدة، لا نجد بينها ما يوحي بصحة التهمة الخطيرة الموجهة، ذلك أنه يقتبس كلاماً يقرّر فيه طه حسين أن مصر تخضع لمؤثرات متشابهة. وما تخضع له دول البحر الابيض المتوسط، التى تبادلت معها التأثر والتأثير منذ أقدم العصور[٢]...

وقد يقتبس من الكتاب قول طه حسين: " العقل المصري القديم ليس عقلاً شرقياً إذا فهم من الشرق: الصين واليابان والهند" [٣]، دون أن يلفت القارىء الى دلالة حرف الشرط "إذا" الوارد في العبارة، وكان طه حسين قد جزم فيها بان العقل المصري ليس عقلاً شرقياً على الاطلاق.

وإذن فهذه الاقتباسات وأمثالها بعيدة كل البعد من أن تثبت التهمة الخطيرة.. لكننا مع هذا نتساءل للحوار: هل قصد منها طه حسين فصل مصر عن العالم العربي والإسلامي حقاً؟!

(١) الاتجاهات الوطنية، ص٢٢٩، ج٢، طبعة خاصة، دار الإرشاد - بيروت، ١٩٧٠.
(٢) مستقبل الثقافة: ص١١
(٣) نفسه: ص١٤.

... إننا حين نعود الى الكتاب المقصود، نجد طه حسين منذ البداية يقرر فيه أن العقل المصري شرقي قد أثّر فيه انه اتصل "... باقطار الشرق القريب اتصالاً منظماً مؤثراً في حياته، ومتاثراً بها... ص ١٠" [(١)].. وهو يقصد هنا بالشرق القريب العالم العربي والإسلامي، فلننظر جيداً كيف يصرّح بحقيقة مقصده من التعبير تصريحاً لا لبس فيه ولا غموض اذ يقول: "... ظهرت في هذا الشرق القريب فنون وعلوم وآداب تأثر بها اليونان والرومان فانتجوا حضارة أوروبا، وأعانهم على ذلك المسلمون: أي أهل هذا الشرق القريب ص ٦٨" [(٢)].

ونحن نجده يجهر بحقيقة مقصده هذا منذ بداية الكتاب وهو أن الشرق شرقان: شرق بعيد ويشمل اليابان والصين وكوريا وما حولهما، وهذا الشرق لم يؤثر حضارياً فينا، كما أثرت أوروبا... وشرق قريب هو العالم العربي والإسلامي، ومصر جزء لا يتجزأ من هذا الشرق، وهو يقرّر أنه في هذه الحقيقة لم يأت بجديد، وإنما هو أمر بديهي "... يبتسم له الأوروبي، حين تنبئه به، لأنه عنده من الاوليات ولكن المصري والشرقي العربي يلقيانه بشيء من الإنكار... ص١١» [(٣)].

... وهكذا يبدو جلياً دون ريب أن طه حسين ينظر في كتابه الى مصر والى العالم العربي والاسلامي على انهما وحدة واحدة فكلامه

(١) مستقبل الثقافة: ص١٠ .
(٢) نفسه: ص٦٨ .
(٣) نفسه: ص١١ .

كما رأينا يشمل الجميع، وهو يرى أن هذا الشرق القريب أو العربي قد تأثر بالحضارة اليونانية، والرومانية معاً، كما أثّر هذا الشرق أيضاً في هذه الحضارة بدوره، ولنتأمل كيف يقرر هذه الحقيقة دون التواء أو غموض: «... من الحق ان نعترف بأن مصر لم تنفرد بالتاثير في حياة اليونان، ولا في تكوين الحضارة اليونانية والعقل اليوناني، وإنما شاركتها في ذلك امم شرقية اخرى، وهي هذه الامم التي كانت في هذا الشرق القريب... » ثم لننظر كيف يقرر أن العقل المصري هو عقل شرقي، وهو جزء لا يتجزأ من الشرق القريب، يقول: «... كل شيء يدل على انه ليس هناك عقل أوروبي يمتاز من هذا العقل الشرقي الذي يعيش في (مصر) او ماجاورها من بلاد الشرق القريب.. ص٦٨»[١].

... وهكذا نجد طه حسين في كتابه كله يؤكد المرة تلو المرة بأن مصر شرقية من هذا الشرق القريب لا البعيد أو الاقصى وان هذا العقل الشرقي قد تبادل التاثر والتأثير خلال حقب التاريخ مع دول حوض البحر المتوسط الاوروبية، .. وهذا الذي يذهب اليه هنا هو حق أبلج لا مراء فيه، وهو من الاوليات أو البديهات حقاً، فهذه آثار الرومان واليونان نجدها منتشرة في بلادنا العربية منذ آلاف السنين، فمن يستطيع أن يزعم بأنها غير موجودة ؟.. وهذه آثارنا العربية الاسلامية، ما زالت قائمة في مدن إسبانيا (الاندلس) وفي صقلية،.. فأين الأوروبي الذي يزعم أنها غير موجودة؟... ولكن هل نجد مثل هذه الآثار العربية في الصين أو اليابان أو كوريا... أم هل

(١) مستقبل الثقافة: ص٦٨ .

نجد لهذه الدول الشرقية البعيدة أية آثار في بلادنا ..؟... هذه دون شك هي حقائق التاريخ والجغرافية، فمن يستطيع أن ينكرها؟!.. وثمة حقيقة مهمة، يجب ان نجلوها هنا في هذه التهمة، وهي أن طه حسين لا يريد للشرق العربي أو القريب أن يكون تابعاً لاوروبا، كما يشيع عنه خصومه، وانما هو يريد لهذا الشرق ان ينهض نهوضاً، لأن العقل العربي الشرقي ليس اقل امتيازاً من العقل الاوروبي، .. واذا كانت أوروبا ناهضة الآن، فذلك بسبب ظروف معينة، فالأمر لا يعود البتة الى امتياز العقل الاوروبي، يقول: «.. وإذن فكل شيء يدل على أنه ليس هناك عقل أوروبي يمتاز من هذا العقل الشرقي، الذي يعيش في مصر وما جاورها من بلاد الشرق القريب،... وإنما هو عقل واحد، تختلف عليه الظروف المتباينة المتضادة، فتؤثر فيه آثاراً متباينة متضادة، ولكن جوهره واحد، ليس فيه تفاوت أو اختلاف .. ص٢٨»[١].

.. وطه حسين يقرر أن العقل المصري هو جزء لايتجزأ من العقل الاسلامي، فاذا كان الكاتب الفرنسي «بول فاليري» حين شخّص العقل الأوروبي قد ردّه الى عناصر ثلاثة: الحضارة اليونانية، والحضارة الرومانية، والدين المسيحي، فإن طه حسين يرى أن هناك عقلاً نداً لهذا العقل الأوروبي يقابله، ويمكن تشخيصه أيضاً ألا وهو «العقل الاسلامي» المتأثر بحقائق الجغرافية والتاريخ، وبالدين الاسلامي والتراث العريق[٢].

(١) مستقبل الثقافة: ص٢٨
(٢) نفسه: ص٢٩

واذا كان هذا العقل الاسلامي نداً للعقل الاوروبي فينبغي أن ينهض من كبوته، كما نهض العقل الأوروبي منذ قرون عدة، وذلك حتى لا يظل تابعاً ذليلاً، وهذا الذي يقرره طه حسين في كتابه عام ١٩٣٨، يتسق وما رأيناه يقرره في محاورة توفيق الحكيم قبل ذلك، أو في بداية الثلاثينيات، حين رأيناه يقرّر أن مصر عربية في الوقت الحاضر، .. كذلك يتسق مع ما رأيناه يقرره بعد ذلك في محاورة «سلامة موسى»، وهو أن مصر إسلامية.

.. واذن فالتّهمه التي يوجهها الدكتور محمد محمد حسين، والتي تقول: إن طه حسين يريد ان تصبح مصر غربية، وأن تقطع ما يربطها بشرقها وعروبتها وإسلامها، هي تهمه باطلة، بل هي زائفة لا نجد لها أي سند في كتاب «مستقبل الثقافة».

١- رأي طه حسين في الأزهر

وأما التهمة الثانية فهي قول الدكتور محمد محمد حسين إن طه حسين يرى في كتابه «.. أول ما ينبغي ان يزال ويهدم عنده هو الازهر .. ص٢٣٧»[١]، وقوله ان طه حسين «يريد أن يدعو الى حكومة لا دينية ص٢٣٦»[٢]، ... ويلاحظ هنا أن الدكتور محمد حسين يتبنى آراء خصوم طه حسين من المحافظين، الذين قلنا: إنهم هاجموا طه حسين في منتصف الخمسينيات، حين عاد ليطالب بإصلاح التعليم في الازهر، فقد اتهموه بأنه يريد هدمه، وأنه عاد ليكرر ما كان قد جاء في كتابه «مستقبل الثقافة»، وقد رد عليهم طه حسين هذه المرة، فلفت القارىء الى انهم يبترون الكلام من كتابه المذكور، ويلوون عنقه ليضللوا القراء، ولننظر ماذا يقول عن أحد هؤلاء: «.. إنه يروي جملاً من كتاب «مستقبل الثقافة» يختزلها اختزالاً مما قبلها، ومما بعدها، لا يريد بذلك إلا التشنيع والتشهير وإثارة الناس... ص٢٦٢»[٣] .. وبازاء هذا الاسلوب فإننا

(١) الاتجاهات الوطنية: ص٢٣٧ .
(٢) المصدر السابق: ص٢٣٦ .
(٣) نقد وإصلاح: ص٢٦٢ .

نجد طه حسين يضطر في ردّه الى إعادة ما قاله في الكتاب، ليري القارىء أنه صرح تصريحاً بانه لا ينوي السوء بالازهر، وانما هو يراه «مصدر الحياة الروحية للمسلمين، ويجب ان يبقى، ولكن ليؤدي دوره كما يجب، فإنه لايريد له الجمود والتخلف عن العصر، مما يؤدي الى موته وذهاب دوره»[1]. .. ثم نجده يرد على تهم هؤلاء من أمثال الدكتور محمد محمد حسين، فيجهر جهراً بأنه في كتابه «لم يطالب بإلغاء التعليم الديني» ثم يقول «.. ولا يمكن ان اطالب به أو افكر فيه، وانما اريد إصلاح الازهر من اجل الدين نفسه، ليكون أقدر على نشره في أرجاء العالم»[2]

☆☆☆

. وهكذا فإن الدارس المحايد، الباحث عن الحقيقة، يجـد نفسه بين موقفين متناقضين، لا يدري أيهما الصحيح: هل هو قول بعض المحافظين من امثال الدكتور محمد محمد حسين: إن طه حسين قد دعا الى إلغاء التعليم الديني وهدم الازهر في كتابه السالف، أم هل هو قول طه حسين: إنه لم يدع الى ذلك، وانما هؤلاء يحرّفون الكلِمَ عن مواضعه من اجل التشهير والتضليل؟ .. واذن لا مناص أمام الدراس المحايد من العودة الى الكتاب المختلف فيه، ليستطلع الحقيقة بنفسه، ولا هدف له سوى معرفتها ليس غير.

☆☆☆

(١) نقد وإصلاح: ص٢٦٥
(٢) نفسه: ص٢٥٢-٢٥٤

ونحن حين نعود الى كتاب «مستقبل الثقافة» ونقرأه متمهلين، نرى طه حسين فيه يريد النهضة لمصر والشرق العربي، وهو يرى انّ قوامها هو التعليم، على اساس صحيح متين. .. واذن لا بد من اصلاح هذا التعليم على اسس علمية حديثة[1]، ولذا نجده يدعو الى اصلاح التعليم في المراحل الاولية والثانوية، والى إصلاحه في المدارس الاجنبية التي تجب مراقبتها من الناحية الدينية والوطنية واستعمال اللغة العربية، .. وأما الازهر هذا الجامع العريق، الذي درس فيه طه حسين في حياته الاولى، وصوّر حلقاته ابدع تصوير في كتابه «الايام» فيلاحظ انه يغار عليه ويحمل له المودة والتقدير على الرغم من اتهامات الخصوم، وهو حين يأتي على ذكره في كتاب «مستقبل الثقافة» يلاحظ ان الأزهر قد حاول تطوير نفسه من الناحية الحضارية، بل يلاحظ انه قد «... أصبح مسرعاً الى هذه الحضارة، يدفعه إسراعه الى شيء يشبه الاسراف، إن لم يكن هو الاسراف ص٦١»[2].. فقد دخل «الراديو» الازهر، واخذ شيخه الاكبر يتحدث الى المسلمين من خلاله. .. واذن ما دام الازهر مضطراً الى تطوير نفسه، فإنه يريد له أن يطور نفسه على أسس علمية حديثة، مع الاحتفاظ بطبيعة دوره التليد، .. وهو يقرر منذ البداية أنه لا يريد ان يمس وجود الازهر بسوء قائلاً: «.. اعوذ بالله ان أريد الانتقاص من حقوق الازهر، وانما أريد أن نلائم بين هذه الحقوق وبين النظام الديمقراطي الصحيح... ص٨٨»[3].

(١) مستقبل الثقافة: ص٥١ .
(٢) المصدر نفسه: ص٦١ .
(٣) المصدر نفسه: ص٨٨

... وهو حين يحاول إبراز أهم هذه المقومات وهو الدين الاسلامي الحنيف، نجده يقول: «.. نحن من غير شك نعتمد على أن الدين مقوّم خطير من مقومات الوطنية المصرية .. ص٨١»[١].

وينبغي ان نلاحظ هنا أن طه حسين لايتحدث عن إصلاح اساليب التعليم في الازهر وحده، خلال كتابه المذكور، وانما هو يدعو الى اصلاحه في جميع المراحل والمدارس عامة، وفي المدارس الاجنبية خاصة، لأن الانجليز قد رسموا لهذا التعليم «طريقة محددة ضيقة، فأفسدوه وافسدوا نتائجه وآثاره أشد الإفساد ص٧٢»[٢]، ... وهو يكرر القول الصريح عندما يأتي الى الازهر خاصة أنه يريد له أن يبقى مستمراً في تعليمه الديني، فلنتأمل قوله: «.. أنا بعيد كل البعد عن أدعو الى المساس بجوهر التعليم الديني في الأزهر، وما يتصل به من المعاهد المنبثة في الاقاليم، فقد قدمت أن الدين مقوم من مقومات الشخصية الوطنية، وأنا مؤمن بهذا فيما بيني وبين نفسي أشد الإيمان ... ص٨٥»[٣]، ... وهو حين يدعو الى إشراف الدولة على التعليم الاولي والثانوي والمدارس الاجنبية والمعاهد العالية، يؤكد ان هذه المعاهد ينبغي ان يظل لها استقلاليتها، برغم هذا الاشراف، ثم يخصص الأزهر، فيقول: «.. كذلك الأزهر يجب ان يستقل بتعليمه العالي استقلالاً تاماً.. ص٩٠»[٤].. وجل ما يريده طه حسين من إصلاح للأزهر أن يدرس طلابه - فضلاً عن

(١) مستقبل الثقافة: ص٨١ .
(٢) المصدر السابق: ص٧٢ .
(٣) المصدر نفسه: ص٨٥ .
(٤) المصدر نفسه: ص٩٠ .

علومهم الدينية - العلوم الحديثة، مثل الرياضيات والاقتصاد والسياسة ... الخ، ذلك أنه يريد للشيخ المسلم ان يكون مؤهلاً لشؤون الدنيا، مثلما هو مؤهل لشؤون الدين؛ لأن الإسلام هو دين دنيا وآخرة، وهو لايريد للعالم المسلم أن يبدو مقصراً أو قاصراً من الناحية العلمية بإزاء رجال الدين المسيحي مثلاً، الذين يحرصون على التزود بالعلوم الحديثة، فضلاً عن تخصصهم الديني.

... وإذن فالذي يؤلم طه حسين في هذه القضية هو الفرق الكبير بين عالم الدين المسلم، ورجل الدين المسيحي او اليهودي، في أوروبا أو حتى في مصر، ذلك أن الفرق، كما يقول هو: «.. الفرق بين العجز والقدرة، وبين الخمود والنشاط، وبين القصور والتصرف في كل شؤون الحياة .. ص٢٤٩»[1].

... وهو يلاحظ أن علماء الدين الاسلامي المعاصرين مقصّرون بالقياس إلى علماء المسلمين الأوائل، الذين كانوا يحرصون على الإلمام بثقافة عصرهم... وإذن فهو حين يدعو إلى إصلاح الأزهر فإن هدفه أن ينهض الدين الإسلامي والمسلمون في هذا العصر[2]، .. ونحن نجده في منتصف الخمسينيات يكرر ما ردده في كتاب «مستقبل الثقافة» وهو قوله: «.. أنا لم أطالب بإلغاء التعليم الديني، ولا يمكن أن أطالب به، أو افكر فيه»[3]...

---

(١) نقد وإصلاح: ص٢٤٩ .
(٢) المصدر نفسه: ص٢٥٢ .
(٣) المصدر نفسه: ص٢٥٢ .

... وهكذا كيفما ذهبنا في كتاب «مستقبل الثقافة» لا نجد إلا الحرص على بقاء الأزهر، وعلى بقاء التعليم الديني، كما نجد الحرص على إصلاح التعليم عامة، وفي الأزهر خاصة، حتى يخرج شيوخاً مؤهلين يكونون أنداداً لرجال الدين المسيحي المعاصرين، .. وهكذا يتبين لنا أن تهمة خصوم طه حسين، وفي مقدمتهم الدكتور محمد محمد حسين هي تهمة زائفة حقاً، لا أساس لها من الصحة، وأن طه حسين كان على حق حين لاحظ في حواره مع بعض المنتقدين: أنهم يحرّفون الكلِم عن مواضعه، ويبترونه، وهو واعٍ لهدفهم الخطير، فالهدف - كما يرى - هو أن يعبّئوا العامّة عليه دون حق، بإيهامهم أنه معادٍ للدين، وهو ما نجده شائعاً بينهم حقاً حتى الآن! .. وإذن فواجب محبي الحقيقة من رجال القلم الحر، أن يزيلوا من أذهان العامّة ما علق بها من وهم، وأن يرفعوا عن طه حسين هذا الظلم..

... وحتى الحكومة اللادينية أو المدنية التي ذهب الدكتور محمد محمد حسين إلى أن طه حسين يريدها، مع أنه لم يطالب بها، باعتراف الدكتور محمد نفسه، ينبغي ملاحظة أن الدكتور محمد محمد يُحاكمه فيها اعتماداً على وهمه أو ادّعائه بأنه يعرف ما في سريرته، لأنه لا يوجد نص في كتاب «مستقبل الثقافة» ينص أو يوحي بأنه يريدها... نقول حتى هذه الحكومة ومثلها نجد طه حسين يعارضها في محاورة سابقة أو نقد للدكتور محمود عزمي، الذي دعا إلى الفكرة، ذلك أن طه حسين كان يرى أنها غير مناسبة للمسلمين والإسلام.

٢- طه حسين واللغة العربية

وأما التهمة الثالثة التي يكيلها خصوم طه حسين له في كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» كما صورها الدكتور محمد محمد حسين في كتابه «الاتجاهات الوطنية» فهي قولهم إن في الكتاب «الدعوة إلى إخضاع اللغة العربية لسُنة التطور، ودفعها إلى طريق ينتهي باللغة الفصحى، التي نزل بها القرآن الكريم إلى أن تصبح لغة دينية فحسب، كالسريانية واللاتينية والقبطية ص٢٢٩»[١].

ويستدل الدكتور محمد حسين على هذه التهمة بقول طه حسين في كتابه: «.. إن اللغة العربية عسيرة، لأن نحوها ما زال قديماً عسيراً...» وبقوله: «إن العلوم اللسانية كغيرها من العلوم، يجب أن تتطور وتنمو وتلائم عقول المعلمين والمتعلمين، وبيئتهم التي يعيشون فيها، وحاجتهم التي يدفعون إليها...» ... وبناءً على هذا كله، فإن الدكتور محمد حسين لا يصدق طه حسين حين يقول في الكتاب: «.. أحب أن يعلم المحافظون أني قاومت وسأقاوم أشد المقاومة دعوة الداعين إلى اصطناع الحروف اللاتينية...» .. وهو لا يثق بقوله، حين يقول: «.. أنا من أشد الناس ازوراراً عن

(١) د. محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية، ص٢٢٩، ج٢ .

الذين يفكرون في اللغة العامية على أنها تصلح أداة للفهم والتفاهم».

والمفارقة التي نحب أن نلفت القارىء إليها هنا، أن طه حسين نفسه يذهب إلى هذه الآراء التي ساقها الدكتور محمد محمد، لأنه يخشى أيضاً على اللغة العربية من أن تموت مثل اللاتينية وغيرها، .. وإذن فالقضية هنا التي نحب أن يفصل فيها القارىء هي: متى تموت اللغة العربية الفصحى: عندما تتطور وتتلاءم وحاجات العصر أم عندما تتقوقع، وتصر على عدم التطور والنماء؟! ... والجواب العلمي الصحيح هو أن أيّ لغة تموت دون شك، إذا لم تتطوّر، لأنّ أبسط تعريف للغة هو «أنها وعاء للفكر والحضارة»، وفكر الإنسان وحضارته يتطوّران تطوراً مستمراً، وأيّ شعب يجد لغته لا تواكب هذا التطور الذي يشمل حياته، يضطر حينئذٍ إلى أن يبحث لحياته عن وعاء عصري آخر أو لغة متطورة أخرى، .. هذا ما حدث للغة اللاتينية، وكان طه حسين يتقنها، ويعرف قصة موتها، فهي عندما جمدت وأصبحت متخلفة عسيرة، لا يعرفها سوى الخاصة من المتعلمين، وانقطع فهم عامة الشعوب الأوروبية واستعمالهم لها، اضطرت هذه الشعوب إلى الاعتماد على لهجاتها في عصر النهضة، حتى أصبحت هذه لغاتها القومية، على نحو ما نرى اليوم، ... وإذن ف«طه حسين» كان يخشى على اللغة الفصحى من هذا، أما قوله عام ١٩٣٨، إن نحوها عسير، فهذا الذي مازال يشهد به كل من مارس تدريسها للطلاب، على اختلاف مراحلهم، .. وأما قوله: إنها في حاجة إلى تيسير فهو ما أقرت به مجامع اللغة العربية كلها، على نحو ما نراها تفعل الآن... ولكن مع هذا كله

نحب أن نلفت القارىء إلى أن محمد محمد حسين قد أورد عن طه حسين ما أورد، متغاضياً عن أشياء خطيرة تتعلق باللغة العربية، قد قرّرها طه حسين في كتابه، بادىء ذي بدء، .. ومن أبرزها:

- أن اللغة العربية هي مثل الدين الإسلامي، من أهم مقوّمات شخصية مصر المميزة لها، ولذا فهو يدعو إلى تعليمها تعليماً صحيحاً، حتى يتقنها الشعب، يقول:

«.. من حق الدولة، ومن الحق عليها أن تكفل لأبناء الشعب تعلم لغة الشعب وإتقانها؛ لأن هذه اللغة من أهم مقوّمات الشخصية الوطنية من جهة، ولأن هذه اللغة هي وسيلة التعامل والحياة بين أبناء الوطن الواحد، فإذا طلبنا إلى الدولة أن تفرض على المدارس الأجنبية، التي تقوم في مصر تعليم اللغة العربية، وأن تتعهد هذا التعليم بالملاحظة المتصلة، والتفتيش المستمر، والامتحان الدقيق، حتى لا يكون هذا التعليم أقرب إلى الهزل من الجد، وإلى الخداع من النصح، .. إذا طلبنا إلى الدولة هذا لم نطلب منها شططاً، وإذا فرضت الدولة هذا على المدارس الأجنبية، لم تكن ظالمة لها، ولا جائرة عليها، ولا مكلفة إياها، أكثر ممّا تطيق..ص٨٠»[1].

-- .. وهذا يتسق مع ما رأيناه يقول به في محاورة توفيق الحكيم عام ١٩٣٣، وهو أنه يحبذ أن يتعلم المصريون عدة لغات حية، لا أن يقتصر التعليم على لغة واحدة كالفرنسية أو الإنجليزية، وذلك حتى تنافس بعض هذه اللغات بعضاً، فلا يكون لها

(١) مستقبل الثقافة: ص٨٠ .

تأثيرها السلبي الخطير على تعلم اللغة العربية اللغة القومية لمصر.

-- وأما طمأنينة الدكتور محمد محمد حسين إلى أن طه حسين يريد العامية ويحبذها، ولا يعارضها، فقد تناسى فيها أنه في الوقت الذي وضع كتابه «الاتجاهات الوطنية» كان طه حسين منذ أواخر سنوات الأربعين يخوض معارك نقدية ضارية مع دعاة العامية في كتابة القصة والشعر والمسرحية، ... وقد بدأ هذه المعارك بنقد صديقه توفيق الحكيم في «عودة الروح»: بأنه قد أساء إلى فنه إساءة بالغة «..حين اصطنع العامية في القصة، فأسرف في اصطناعها.. ص١٠٢»[1] ... وقد نقد الشعراء من أمثال إيليا أبي ماضي وإبراهيم ناجي، وعلي محمود طه، فكان يشدد في نقده اللغوي خاصة، ... وحين ظهر القصّاص الجدد، وبدأ ينقدهم، حارب استعمالهم العامية في الحوار، ويشهد بهذا نقده لقصتي يوسف السّباعي «إني راحلة» و«رد قلبي»، فقد أخذ عليه في القصتين أنه قد أهمل سلامة اللغة «إهمالاً مروّعاً»، ولنتأمل بعض أقواله في نقد القصتين: «... راعني ما في قصة (ردّ قلبي) من استخفاف بالفصحى، وكأن (الكاتب السباعي) قد اطمأن إلى أن مثلي من الذين يتحرجون في اللغة لن يقرأوا هذه القصة حتى آخرها، فأطلق نفسه على سجيّتها، وكتب غير حافل بخطأ أو صواب، .. ولكن أؤكد له ناصحاً أن هذا الإهمال يشين قصته حقاً، ويسيء إليها ... ص١٠٦»[2].

(١) فصول في النقد والأدب: ص١٠٢

(٢) نقد وإصلاح: ص١٠٦

-- ... ونحو هذا النقد نجده يوجهه إلى يوسف إدريس في مجموعة «أرخص ليالي» فقد نقده لاستعماله العامية محذراً، وناصحاً بتركها، .. ونحن نجده في هذا النقد لقصص المحدثين يعرض لهذه الحجج التي يتذرع بها أنصار العامية في القصة والمسرحية، فيثبت تهافتها، وتقوم هذه الحجج على القول: إن العامية هي أقدر على نقل الواقع الشعبي كما هو حقاً، ... ولقد كان يحتجّ عليهم بنجيب محفوظ، هذا القاص المتفوق عليهم في فنه، وفي تصويره الرائع للأحياء الشعبية في القاهرة، .. فقد استطاع أن يصور هذا بالفصحى الميسّرة، لا بالعامية[1].

-- ولا ريب أن من يتوفّر على دراسة نقد طه حسين للأدب العربي الحديث يخرج بنتيجة واضحة قاطعة: وهي أنه ما من أديب في القديم أو الحديث قد ناضل دون العربية الفصحى، وذاد عنها أنصار العامية واللاتينية مثله، حتى لقد بلغ منه الأمر في هذا حداً كان يستدعي معه أيّ أديب من تلاميذه إلى بيته، ليلومه على استعمال العامية، وربما يعنّفه، وذلك على نحو ما فعل مع المسرحي الكاتب «نعمان عاشور»، إذ استدعاه ذات يوم إلى بيته، كما يقول، ثم راح يعاتبه ويلومه؛ لانه نشر مقالة في صحيفة مصرية، جعل لها عنواناً بالعامية، ولنترك الكاتب نفسه يصور لنا كيف واجهه طه حسين بالسخرية، وماذا رد عليه. قال نعمان عاشور: لقد قال لي طه حسين مقرّعاً «.. اظنك تحسب اني لا اعرفك، انت اصلاً لست من تلاميذي، فاجبت مسرعاً: كلنا تلاميذك يا دكتور، ..صمت لحظة، ثم ضحك ساخراً: لا

(١) من أدبنا المعاصر: ص٢١٥ .

تلاميذي لا يكتبون باللغة العامية أبداً»[١].

وقد بلغ استياؤه من استعمال العامية حداً دفعه إلى القول في إحدى المقابلات: «إن من يحسن الفصحى، ويعدل عنها إلى استعمال العامية في الكتابة هو عندي آثم في دينه»، .. وكان يكرر القول للأدباء: إن العامية لم تبلغ بعد أن تكون لغة الأدب، وما أراها تبلغ ذلك حتى آخر الدهر[٢]، وحتى الأدباء الذين كانوا يستعملون الفصحى ويخطئون فيها قد كان ينقدهم نقداً حاداً، نحو قوله: «.. سيثبت المؤرخون أن مصر، عاشت حيناً من الدهر، كانت لغتها الرسمية فيها هي اللغة العربية، وكانت لغتها بحكم الدستور هي اللغة العربية، .. ولكن فريقاً من كتابها كانوا يصطنعون رطانة تقارب العربية، لأنهم لم يكلفوا أنفسهم أن يتعلموا الأداة الأولى للأدب، وهي اللغة...»[٣].

-- ومن الطريف هنا ملاحظة أن طه حسين كان ينشر هذا النقد اللغوي على الملأ، في الوقت الذي كان الدكتور محمد محمد حسين يتهمه بأنه يريد العامية، وبأنه يمكر بالعربية الفصحى..!!

-- وثمة دليل آخر ملموس على صدقه وإخلاصه للفصحى، نحسب ألا سبيل إلى إنكاره، وهو هذه اللغة التي كان يحرص على الكتابة بها، وهي عربية رفيعة المستوى، على نحو ما يشهده قراؤه المحايدون لكتبه المختلفة، مثل: «الأيام» و«الوعد الحق»

(١) نعمان عاشور «لقاء مع طه حسين» مجلة الدوحة، ص١٨، عدد٥١ ، ١٩٨٠ .
(٢) مقدمة «ألوان من القصة المصرية»، ص١٤
(٣) من أدبنا المعاصر: ص٢٧ .

و«على هامش السيرة».. فلماذا كان طه حسين يحرص على هذه اللغة، وعلى هذا الأسلوب الفريد، الذي شهد بحسنه العقاد؟ .. وهل كان فيه يتآمر على نفسه، ويريد لكتبه أن تموت بعده، إذا كان هو يريد للعربية الفصحى أن تموت، كما يزعم الدكتور محمد محمد حسين وأمثاله..؟!

-- .. والطريف هنا أننا حين نوازن بين سلامة العربية التي يحرص طه حسين على الكتابة بها، وبين سلامة الفصحى، التي يكتب بها الدكتور محمد محمد، يبدو لنا الفرق جلياً، وتظهر لنا القضية المختلف فيها واضحة! فبينما طه حسين يكتب بلغة بريئة من المحذور اللغوي، إذ نجد محمد محمد حسين يقع في هذا المحذور، خلال صفحات قليلة من اتهاماته، نحو وضعه «أم» بعد السؤال بـ«هل» دون تكرارها، كقوله: «.. هل تفعل ذلك حرصاً على رقيّنا أم تفعله حرصاً على مصلحتها؟ ..ص٢٣٤»[١].

-- ... ونحو تذكيره لكلمة «سبيل»، والأرجح تانيثها، كما وردت في القرآن الكريم، وذلك كقوله «.. إن سبيل الحضارة الغربية هو السبيل ص٢٣٤»[٢]، ونحو جمعه «مشكلة» على «مشاكل» في قوله: «.. ومشكلة من المشاكل، التي تتطلب حلاً ص٢٣٧»[٣]، ونحن لو رحنا نتقصى مثل هذا الضعف اللغوي في كتابه لوجدنا منه الكثير، ولكن غرضنا هنا هو القول: إن من

(١) الاتجاهات الوطنية: هامش ص٢٣٤، ج٢

(٢) المصدر نفسه: ص٢٣٤، السطر الأول.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٣٧، السطر ٣ .

يغار على الفصحى لجدير بان يتجنّب هذه الركاكة اللغوية المحدثة، وألا تكون لغته من «قوارير»، كما قال طه حسين للرافعي، وهو يحاوره حول لغة الأسلوب

-- وهكذا يتبين لنا دون ريب من خلال المناقشة الموضوعية، والاحتكام إلى نصوص كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» أنّ هذه التهم التي توجه إلى طه حسين هي في مجملها تهم باطلة، لا أساس لها من الصحة، وانها تكال له جزافاً، وتشهيراً، إما لسوء الفهم، وإما للإصرار على عدم الفهم.

-- ويمكن القول: إن كلا الفريقين: طه حسين وخصومه يختلفون في الرؤية، فـ«طه حسين» يرى أن حماية الإسلام والعروبة تكون بنهضة أبناء الإسلام، والعروبة، في هذا الشرق القريب، وذلك على أسس علمية، كما فعل الأسلاف القدامى، وكما فعل خصومنا الأوروبيون، الذين استعمرونا في العصر الحديث. وأما خصوم طه حسين فهم يرون أن الإسلام والعروبة يُصانان من خلال المحافظة عليهما من عوادي التغيير، وهم في سبيل هذا يشككون في كل محاولة للتحديث والتطوير، يقول طه حسين مصوّراً هؤلاء المحافظين، وهو يحاورهم: «.. لكن المحافظين في كل بلد مستيقظ، يعرف نفسه، ويهيّىء مستقبله، ويجاري التطور، مقضيّ عليهم أن يسخطوا دائماً، لأنهم يحبون الوقوف، والدنيا من حولهم تحب الحركة، وربما أحب فريق منهم الرجوع إلى الوراء، والدنيا من حولهم تحب المضي إلى أمام ..ص٢٤٥»[١] .

(١) نقد وإصلاح: ص٢٤٥

وهكذا نخلص إلى القول في حَيْدة وموضوعية: إنّ طه حسين في كتاب «مستقبل الثقافة» يقرر أنّ مصر هي جزء لا يتجزأ من شرقها العربي القريب، لا من الغرب أو الشرق البعيد، بل هو يقرر أن هذا الشرق العربي القريب هو مهد هذا العقل الذي يزدهي ويزدهر في أوروبا، وهو مصدر هذه الحضارة الأوروبية، التي نريد أن ناخذ بأسبابها، ص٦٨»[(١)]

... وهو يقرر أن أهم: مميزات شخصية مصر وهويتها ثلاثة أمور: موقعها الجغرافي في الشرق القريب، ودينها الاسلامي الحنيف، ولغتها العربية الفصحى، فلنتأمل قوله: «.. مشخصات مصر واضحة بينة، يشخصها إقليمها الجغرافي الذي تعيش فيه، وندعوها إلى حماية هذا الإقليم من أن تغير عليه أوروبا، ... ويشخصها دينها، وندعوها إلى أن تحتفظ بهذا الدين، وتلائم بينه وبين الحياة، كما لاءَم أسلافنا بينه وبين مقتضيات الحياة. وتشخصها لغتها العربية، وتراثها الفني والأدبي..ص٦٣[(٢)]

... وهو يرى أن مصر بمقوماتها السابقة - ومثلُها الشرق العربي والإسلامي - معرّضة لخطر إفنائها من قبل أوروبا، العدو اللدود، إذا بقيت ضعيفة، ولم تنهض وتحارب أوروبا بمثل سلاحها، .. ولذا يتساءَل عن سبيل حماية هذا الشرق بقوله: «كيف نحميه إذا لم نقاوم أوروبا بمثل سلاحها... ص٦٨»[(٣)]، وهو في دعوتـه إلى

(١) مستقبل الثقافة: ص٦٨ .
(٢) المصدر نفسه: ص٦٣
(٣) المصدر نفسه: ص٦٨

النهوض يحذّر من الانبهار باوروبا، أو الفناء فيها، ويدعو إلى أن ننهض مع الاحتفاظ بهويتنا العربية الإسلامية والتاريخية العريقة، فلنتأمل هذا النص الصريح تأملاً عميقاً، يقول طه حسين: «... أنا لا أدعو إلى أن ننكر أنفسنا، ولا إلى أن نجحد ماضينا، ولا إلى أن نفنى في الأوروبيين، .. وكيف يستقيم هذا، وأنا إنما أدعو إلى أن نثبت لأوروبا، ونحفظ استقلالنا من عدوانها وطغيانها، ونمنعها من أن تأكلنا ..ص٦٧»[١].

وإذن فـ«طه حسين» يريد لمصر ولأمته العربية والإسلامية أن تأخذ باسباب النهوض الحديثة، مع الاحتفاظ بهويتها العريقة، حتى تحمي نفسها من الخطر الأوروبي الذي يتهدّدها، وهو يضرب مثلاً لهذا النهوض باليابان، على الرغم من بعدها عن الغرب، فقد نهضت وحافظت على هويتها، فكيف لا يستطيع العرب والمسلمون مثل ذلك، يقول: «.. كلا ليس على الشخصية المصرية خطر من الحضارة الحديثة، كما لم يكن على الشخصية اليابانية خطر من الحضارة الحديثة، ولست أدري: لمَ تضيع شخصية المصريين، إذا ساروا سيرة الأوروبيين، ولا تضيعُ شخصية اليابانيين، مع أنّ لمصر من المجد والسابقة، ما ليس لليابان مثله .. ص٦٤»[٢].

. ويلاحظ أنه في دعوته إلى هذا النهوض الحديث يحاول أن ينفخ العزم والثقة في النفوس فيقول: «.. يجب أن نمحو من

(١) مستقبل الثقافة: ص٦٧
(٢) المصدر نفسه: ص٦٤ .

أنفسنا أنّ في الارض شعوباً قد خُلقت لتسودنا .. ص٤٤»[١].

وهو يرى أننا بهذا النهوض يمكن أن نكون أنداداً للأوروبيين، لا أن نفنى فيهم، يقول: نريد «أن نسير سيرة الأوروبيين، ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة ..ص٤٥»[٢].

وهو لا يريد أن نقتبس الأساليب الحضارية الأوروبية الحديثة بخيرها وشرها، وإنما يريد أن نقتبس منها الخير ليس غير، يقول: «.. نحن لا ندعو إلى آثامهم وسيئاتهم، وإنما ندعو إلى خير ما عندهم، وأنفع ما في سيرتهم.. ص٥٤»[٣]، .. ويقول: «.. نحن لا ندعو إلى أن نكون صوراً طبق الأصل للأوروبيين، كما يقال، فذلك شيء لا سبيل إليه، ولا يدعو إليه عاقل ..ص٥٤»[٤].

... ثم انظر إلى طه حسين: كيف لا يقصد مصر وحدها في كلامه، وإنما هو يقصد فيه هذا الشرق القريب كله. الذي تقع فيه البلاد الإسلامية عامة، مما يدلّل على اتساع رؤيته، وعمق انتمائه، .. فهذا الشرق القريب يراه أقدر على النهوض من اليابان، لانه هو الذي كان سبباً في نهوض أوروبا، فلنتأمل قوله: «.. ظهرت في هذا الشرق القريب فنون وعلوم وآداب، تأثر بها اليونان والرومان، فأنتجوا حضارة أوروبا، وأعانهم على ذلك المسلمون، أي اهل هذا

(١) مستقبل الثقافة: ص٤٤
(٢) المصدر السابق: ص٤٥
(٣) المصدر السابق: ص٥٤
(٤) المصدر السابق: ص٥٤

الشرق القريب ...ص٦٨»[1].

☆☆☆

وبعد ... فهذا هو كتاب «مستقبل الثقافة في مصر»: الكتاب، الذي ما انفك خصوم طه حسين يثيرون حوله الشبهات، .. وهي لتهامات - كما رأينا - حين نضعها تحت مجهر التحقيق العلمي الموضوعي، ونسلط عليها الأضواء الكاشفة، إذا هي تبدو لنا حينئذ باطلة ... زائفة

(١) مستقبل الثقافة: ص٦٨

رأي زكي نجيب محمود
في طه حسين..؟؟

-- نشرت صحيفة الرأي، بتاريخ: ١٩٩٣/١/٣١ مقابلة مع المفكر العربي الكبير زكي نجيب محمود، تحدّث فيها عن الفكر العربي المعاصر، ونوّه فيها خاصة باستاذية: عباس محمود العقّاد وطه حسين، ... ولكنه حين سئل عن حكاية العمر بين المفكرين العرب المحدثين، التي تعجبه، أجاب قائلاً: «... في حياتنا الفكرية أجد أن النموذج الذي أقدره غاية التقدير هو طه حسين، وذلك لعدة أسباب: وأهمها أنه استطاع بشخصيته وبثقافته، وبما كتبه وقاله، أن يضع أمامنا الهدف، الذي يصح أن نتجه إليه، وهذا الهدف هو هدفي أنا، وهو أن أنسج حياة عربية، تكون فيها القيم المحلية، القومية والدينية، وتكون فيها القدرة العقلية، التي تصلح لحياة هذا العصر، وقد مزج طه حسين هذه المزجة، وعاشها وكتبها، ولم يكتبها صراحة، ليرشد الناس، بل كان كلما تناول موضوعاً، جسّد فيه هذا الجمع بين الأصل والعصر...، وإذن فطه حسين هو القيمة والمثل...».

-- ولا ريب أن هذا الرأي يستمد قيمته من صدوره عن مفكر كبير، في وزن زكي نجيب محمود، والحق أن طه حسين قد قصد إلى الجمع بين الأصالة والمعاصرة قصداً، وذلك منذ تكوينه الأول، وأحسب أن أستاذية لطفي السيد وعبد العزيز جاويش قد لفتاه مبكراً إليه، حين كان يعمل معهما في الصحافة، فكان لطفي السيد لا يفتأ يقول له: نريدك أن تكون كأبي العلاء وكفولتير! على حين أن الشيخ عبدالعزيز جاويش، هو الذي شجعه على الدراسة في فرنسا، يقول طه حسين في الجزء الثالث من الأيام: «... لكن للشيخ عبدالعزيز جاويش فضلاً على الفتى أي فضل، فهو الذي ألقى في روع الفتى فكرة السفر إلى أوروبا، حين قال له ذات يوم: لا بد من أن نصنع شيئاً لإرسالك إلى فرنسا عامين أو ثلاثة أعوام، ولم يكد الفتى يسمع هذه الألفاظ، حتى استقر في نفسه أن ليس له بدٌّ من عبور البحر على أي نحو من الأنحاء ..ص٢١»، ولقد نجم من رحلته إلى فرنسا أن اطلع على الثقافة الأوروبية العالمية من خلال دراسته في جامعة مونبلييه، وجامعة السوربون، كما كان قد اطلع على الثقافة العربية من خلال دراسته في الجامع الأزهر والجامعة المصرية الأهلية، ولكن المهم في الأمر أنه ظلّ بعد تخرجه يحرص حرصاً دقيقاً مقصوداً على التوازن الثقافي، في برنامج قراءته اليومي، فصهره الدكتور محمد حسن الزيّات يخبرنا أنه قد ظل إلى آخر حياته يقسم قراءاته قسمين: الأول تُقرأ له فيه كتب عربية، والثاني تقرأ له فيه كتب فرنسية، وتتضمن في ما تتضمن ما يترجم إلى هذه اللغة من ثقافة عالمية، ولا شكّ أن هذا التوازن الثقافي الفريد قد انعكس

أصالة ومعاصرة في كتابته، من خلال ثلاثة أمور بأعيانها، وهي:

١- أنه قد عالج الموضوعات العربية القديمة بأسلوب معاصر، وبروح حديث، كمعالجته لشعر الشعراء القدامى في «حديث الأربعاء» وكمعالجته التاريخية الفنية في «على هامش السيرة» و«الوعد الحق».

٢- من خلال الأعلام الذين تناولهم، فقد تناول سوفوكليس وأندريه جيد وبودلير، وفيكتور هوغو وأمثالهم، بتمكن واقتدار لا يقلان عن تمكنه واقتداره في تناوله لزهير وعنترة وطرفة وشعراء الغزل وبشار والمتنبي وأبي العلاء المعري.

وإذا كان أسلوبه بالعربية أسلوباً أدبياً رفيعاً، حاز على إعجاب كبار البلاغيين والنحاة، فإنه في كتابته بالفرنسية عن ابن خلدون وغوته والجرجاني، كان ذا أسلوب ممتاز، وقد شهدت له زوجه في كتابها، «معك» بأنه كان يكتب بالفرنسية على نحو رائع.

٣- لكن أصالته ومعاصرته قد تبدتا أكثر ما تبدتا في محاورته لكبار الكتاب والمفكرين العرب والأجانب، فقد دافع في محاوراته مع الرافعي مثلاً عن المعاصرة في الأسلوب والتفكير، ودافع عن القيم الدينية والقومية في محاوراته الأخرى، مع سلامة موسى وأندريه جيد، كذلك دافع عن عروبة مصر في محاورة توفيق الحكيم على صفحات مجلة الرسالة، التي كان يصدرها الزيّات، ودافع عن العربية الفصحى دفاعاً مجيداً في نقده القصة القصيرة والرواية، حتى قال ذات مرّة في إحدى

مقابلاته: «من يستطيع أن يكتب بالفصحى ويعدل عنها إلى العامية فهو عندي آثمٌ في دينه...».

وإذا كان هو قد حافظ على التوازن في اكتساب الثقافة خلال حياته، فيلاحظ أنه في سنواته الأخيرة قد صار يبدي ميلاً أكثر إلى كتب التراث العربي، فقد ذكر سكرتيره الدكتور الدسوقي أنه كان شديد الشغف بقراءة هذه الكتب. وأنه كان يطلب إليه كثيراً أن يقرأ له من كتاب «العقد الفريد» خاصة، كذلك ذكر الدكتور محمد الزيّات أنه اقتصر في أواخر سنواته على محطة واحدة في الإذاعة، لا يسمع غيرها، وهي محطة القرآن الكريم.

☆ ☆ ☆

- وبعد... فهذا هو طه حسين، الذي ما زال بعض المتعصبين يهاجمونه، دون أن يقرأوا متمهلين، .. ها هو ذا يشهد له مفكر كبير، أنفق عمره كله في نشدان الحقيقة، وقد نيّف على الثمانين، واشتدت عليه وطأة المرض، فأصبح ينظر إلى حياته الأخرى أكثر من حياته الدنيا.

أهمية المحاورات

وبعد... فلعلنا لاحظنا أن أهم المحاورات النقدية التي اشترك فيها طه حسين في النصف الأول من هذا القرن قد دارت حول الأسلوب الأدبي ولغته، والذوق الفني وتغيره، والفرق بين النقد اللاتيني والنقد السكسوني، وأدب العرب وفنهم وثقافتهم، وأما في النصف الثاني من هذا القرن فقد كانت محاوراته حول التحليل النفسي الحديث ومدى صلاحيته لتحليل شخصيات القدماء، وحول الأدب الفردي (أدب الملوك) والأدب الشعبي، والأدب الثوري وحول تحرر الأدب والتزامه، ومادته وصورته.

ونحسب أن هذه المحاورات كانت نافعة للنقد والأدب معاً، وقد لاحظنا كيف أن طه حسين فيها قد دافع عن العربية الفصيحة الملائمة لطبيعة هذا العصر، كما دافع عن العرب: أدبهم القديم وفنهم وثقافتهم، ودعا إلى الحرص على الشخصية الأدبية العربية المعاصرة، وحذّر من فنائها في الأجنبي.

وطه حسين نفسه عاد في أواخر حياته الأدبية إلى ذكر محاوراته

في النصف الاول من هذا القرن، فقرّر أنها كانت خصبة حقاً، وكانت نافعة «لم تمض مع رياح الصيف أو رياح الشتاء»[1]، ثمّ ميّز من بينها محاوراته التي دارت حول الاسلوب الادبي ولغته خاصة مذكراً انه هو وبعض النقاد جمعوا في تجديدهم بين العناية بالأدب القديم وبين العناية بالأدب الحديث، قد نهجوا في محاورة غيرهم من النقاد والأدباء نهجاً يقوم على شيء واحد، هو القصد والتوسّط بين الغلو في المحافظة الذي يؤدي باللغة العربية إلى الجمود ثم الموت، وبين الغلو في التجديد الذي يؤدي بها «إلى الفناء في اللغات الأجنبية، أو في الحياة الأجنبية، أو فيما شئت من هذه الأعراض التي تعرض للذين يخرجون عن القصد، فيغامرون، فيفقدون قديمهم، ولا يظفرون بجديد صحيح، وإنما ينتهون بلغتهم إلى مثل ما تنتهي به المحافظة الغالية من الضياع والموت»[2].

أما أهمّ ما تمخضت عنه هذه المحاورات والخصومات النقدية الخصبة، التي دارت حول اللغة والاسلوب، فهو أنها «أنشأت نثراً عربياً خالصاً لم يَفنَ في الغرب الاوروبي ولم يفنَ في أدب الجاهليين والإسلاميين والعباسيين»[3]، وإنما صور شخصية عربية معاصرة.

وإذا تذكرنا انّ هذا الذي تمخض هو عينه الذي كان يقصد إليه

(١) من ادبنا المعاصر: ١٥٨ .
(٢) المصدر نفسه: ١٦٢ .
(٣) المصدر نفسه: ١٦٠

طه حسين وهو يحاور الغالين في المحافظة والتجديد على حد سواء في الربع الأول من هذا القرن وبعده، عرفنا أن الغلبة في النهاية كانت لمذهبه اللغوي في الأسلوب الأدبي، كمـا تنبأ به وهو يحـاور الرافعي في عام ١٩٢٣[١]، بل إن طه حسين عاد بعد أكثر من نصف قرن من محاورة الرافعي فلَفَت إلى أنّ ما كان ينادي به هو وبعض المعتدلين من مذهب أدبي قد انتصر حقاً انتصاراً، قال عنه؛ «لا ينكره، ولا يشك فيه إلا المحمقون»[٢].

(١) انظر «حديث الأربعاء»: ١٧ - ١٨ ،ج٣ .

(٢) من أدبنا المعاصر: ١٦١

قائمة المصادر والمراجع

أ. المصـــــادر:

☆ طه حسين:

١- الأديب الحائر، مجلة الرسالة، العدد٥١، القاهرة، ١٩٣٤ .

٢- إلى الأستاذ توفيق الحكيم، مجلة الرسالة، العدد١١، القاهرة، ١٩٣٣ .

٣- إلى صديقي أحمد أمين، مجلة الرسالة، العدد١٥٣، القاهرة، ١٩٣٦ .

٤- أهل الكهف، مجلة الرسالة، العدد٩، القاهرة، ١٩٣٣ .

٥- الأيام، الجزء الأول، دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

٦- بين المجلة والقرّاء، مجلة الثقافة، العدد٦، القاهرة، ١٩٣٩ .

٧- تجديد ذكرى أبي العلاء، من دراساته القديمة المجموعة، المجلد الثالث، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤ .

٨- تقليد وتجديد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٨ .

٩- حافظ وشوقي، الناشر مكتبة الخانجي بمصر، ومكتبة المثنى ببغداد، ١٩٦٢ .

١٠- حديث الأربعاء، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢ .

١١- خصام ونقد، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٥ .

١٢- رجعة أبي العلاء، مجلة الثقافة، العدد٣، القاهرة، ١٩٣٩ .

١٣- رد على نقد، صحيفة البلاغ، العدد الصادر بتاريخ ١٩٤٣/٦/٢٦، القاهرة.

١٤- فصول في الأدب والنقد، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩

١٥- في الأدب الجاهلي، الطبعة العاشرة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩ .

١٦- لاتينيون وسكسونيون، مجلة الرسالة، العدد٢، القاهرة، ١٩٣٣ .

١٧- لاتينيون وسكسونيون، مجلة الرسالة، العدد٣، القاهرة، ١٩٣٣

١٨- مذكرات طه حسين، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٧ .

١٩- مستقبل الثقافة في مصر، من المجموعة الكاملة، المجلد التاسع، علم التربية، بيروت، ١٩٧٣ .

٢٠- مقابلة مع جريدة الأهرام، عدد٢٨٢٢، ١٦ مارس، القاهرة، ١٩٦٤ .

٢١- مقابلة مع مجلة العربي، العدد١١، الكويت، ١٩٥٩ .

٢٢- مقدمة مجموعة «ألوان من القصة المصرية»، دار النديم، القاهرة، ١٩٥٦ .

٢٣- مع المتنبي، من دراساته المجموعة، المجلد الثالث، دارالعلم، بيروت، ١٩٧٤ .

٢٤- النقد والطربوش وزجاج النافذة، مجلة الرسالة، العدد٣٨، القاهرة، ١٩٣٤ .

٢٥- وحي الاربعين، مجلة الرسالة، العدد١٠، القاهرة، ١٩٣٣

☆ ابن هشام (أبو محمد عبيدالله جمال الدين بن يوسف) ت: ٧٦١هـ:

٢٦- أوضح المسالك، الجزء الأول، شرح محمد محيي الدين عبدالحميد، الطبعة الخامسة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٦٦

٢٧- مغني اللبيب، الجزء الثاني، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، مطبعة المدني، القاهرة، (د.ت).

ياقوت الحموي، ت، ٦٢٦هـ:

٢٨- معجم الأدباء، الجزء الثاني، دار المأمون، (د.ت).

ب - المراجــــع:

☆ أحمد أمين:

٢٩- إلى أخي طه، الرسالة، العدد١٥٢، القاهرة، ١٩٣٦ .

٣٠- كتاب النثر الفني في القرن الرابع، مجلة الرسالة، العدد٣٩، القاهرة، ١٩٣٤ .

☆ الأسد (الدكتور ناصر الدين):

٣١- حول كتاب «في الشعر الجاهلي» مجلة القضاة، السنة التاسعة عشرة، العدد الأول، يناير/يونيو، القاهرة، ١٩٨٦ .

٣٢- ذكرى طه حسين، (بالاشتراك مع كتّاب آخرين)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٧ .

☆ الأفغاني (سعيــد):

٣٣- إنصافاً لطه حسين، مجلة العربي، العدد٢١٨، الكويت، ١٩٧٧ .

☆ أنيس (الدكتور عبدالعظيم) ومحمود أمين العالم:

٣٤- في الثقافة المصرية، الطبعة الأولى، دار الفكر الجديد، القاهرة، ١٩٥٥

البدراوي، زهران:

٣٥- ☆أسلوب طه حسين في ضوء الدرس الحديث، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢ .

الجندي (أنور):

٣٦- ☆محاكمة فكر طه حسين، دار الاعتصام، ١٩٨٤ .

٣٧- المعارك الأدبية، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ١٩٨٣ .

☆ جيد (أندريه):

٣٨- الباب المفتوح، ترجمة نزيه الحكيم، دار الهلال، العدد٢٢٩، القاهرة، ١٩٦٨ .

☆ حسين (الدكتور محمد محمد):

٣٩- الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، الجزء الثاني، المطبعة النموذجية، القاهرة، (د.ت).

☆ الحكيم (توفيق):

٤٠- إلى الدكتور طه حسين، الرسالة، العدد١٠، القاهرة، ١٩٣٣ .

٤١- خصومات أدبية، الرسالة، العدد٤٦٢، القاهرة، ١٩٤٢ .

٤٢- خصومة، الرسالة، العدد٥٢، القاهرة، ١٩٣٤ .

٤٣- من توفيق الحكيم إلى طه حسين، الرسالة، العدد١٨، القاهرة، ١٩٣٣ .

☆ خضر (عباس)،

٤٤- هل أنا غبي، مجلة الدوحة، العدد٤٢، الدوحة، ١٩٧٩

☆ دسوقي (الدكتور محمد)،

٤٥- طه حسين يتحدث عن أعلام عصره، الطبعة الثانية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٧٨ .

☆ دياب (عبد الحي)،

٤٦- العقاد ناقداً، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥ .

☆ الرافعي (مصطفى صادق)،

٤٧- تحت راية القرآن، الطبعة الرابعة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٦ .

٤٨- الملك فؤاد، الرسالة، العدد١٤٩، القاهرة، ١٩٣٦ .

☆ ابو رية (الشيخ محمود)،

٤٩- رسائل الرافعي، دار الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٠

☆ سامح كريم،

٥٠- معارك طه حسين الأدبية والفكرية، دار القلم، بيروت، (د.ت).

☆ سربية (محمد بديع)،

٥١- حوار مع توفيق الحكيم، الموعد، العدد١٠٩٩، بيروت، ١٩٨٤ .

☆ سلامة (الدكتور يسرى محمد)،

٥٢- جماعة الديوان، مؤسسة الثقافة، الاسكندرية، ١٩٧٧ .

☆ سوزان طه حسين:

٥٣- معك، ترجمة بدر الدين عرودكي، الطبعة الثانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢ .

☆ شاكر (محمود محمد):

٥٤- المتنبي، مجلة المقتطف، الجزء الأول، المجلد٨٨، القاهرة، ١٩٣٦

٥٥- المتنبي، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٧

☆ عاشور (نعمان):

٥٦- لقاء مع طه حسين، مجلة الدوحة، العدد٥١، الدوحة، ١٩٨٠

☆ العريان (محمد سعيد):

٥٧- حياة الرافعي، الطبعة الثالثة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ١٩٥٥ .

☆ عصفور (الدكتور جابر):

٥٨- المرايا المتجاورة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣

☆ العقاد، عامر:

٥٩- معارك العقاد الأدبية، منشورات المكتبة المصرية، بيروت، صيدا، (د.ت).

☆ العقاد (عباس محمود):

٦٠- أبو نواس، المجموعة الكاملة لمؤلفات العقاد، المجلد السادس عشر، دار الكاتب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠

٦١- دراسات في المذاهب الأدبية والاجتماعية، منشورات المكتبة العصرية، بيروت - صيدا، (د.ت).

٦٢- الديوان (بالاشتراك مع المازني)، الطبعة الثالثة، دار الشعب، القاهرة، (د.ت).

٦٣- ساعات بين الكتب، دار الكاتب العربي، بيروت، (د.ت).

٦٤- طه حسين، مجلة الهلال، الجزء التاسع، السنة ٤٣، عدد يوليه، القاهرة، ١٩٣٥

☆ عمر (نجاح):

٦٥- طه حسين... أيام ومعارك، منشورات المكتبة العصرية، بيروت - صيدا، (د.ت).

☆ مبارك (الدكتور زكي):

٦٦- أحمد الله إليك، الرسالة، العدد٣٦٧، ١٥ يوليه، ١٩٤٠ .

٦٧- الحديث شجون، الرسالة، العدد٩، القاهرة، ١٩٤٣ .

٦٨- ديوان ألحان الخلود، دار الكتاب العربي بمصر، القاهرة، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.

٦٩- من زكي مبارك إلى طه حسين، البلاغ، عدد٣٠ مارس، القاهرة، ١٩٣٤ .

٧٠- النثر الفني في القرن الرابع، الطبعة الثانية، مطبعة السعادة، القاهرة، (د.ت).

☆ المازني (إبراهيم عبدالقادر):

٧١- قبض الروح، دار الشعب، القاهرة، ١٩٧١

٧٢- نقد أسلوب طه حسين، البلاغ، عدد يونيه الصادر بتاريخ ٢٥/٦/ ١٩٤٣، القاهرة.

☆ مندور (الدكتور محمد):

٧٣- معارك أدبية، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ت).

٧٤- النقد والنقاد المعاصرون، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، (د.ت)

☆ موسى (سلامة):

٧٥- الأدب للشعب، دار سلامة موسى للنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ت).

٧٦- طه حسين، مجلة الهلال، الجزء الخامس، السنة (٣٢)، القاهرة، ١٩٢٣ .

٧٧- مصطفى صادق الرافعي، دفاع عن المذهب القديم في الأدب، الهلال، السنة الثانية والثلاثون، الجزء الخامس، القاهرة، ١٩٢٣ .

☆ هيكل (الدكتور محمد حسين):

٧٨- من هيكل إلى طه، الرسالة، عدد١١، القاهرة، ١٩٣٣ .

☆ ☆ ☆

* **Bradley, A. C. :**

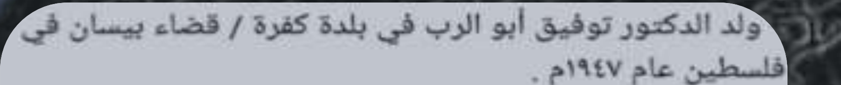
79- Oxford Lectures on Poetry, London, 1959.

* **Richards, I. A. :**

80- Principles of Literary Criticim, Routledge and Kegan Pautl, London, 1963.

نبذة عن الكاتب

الاستاذ الدكتور توفيق ابو الرب



ولد الدكتور توفيق أبو الرب في بلدة كفرة / قضاء بيسان في فلسطين عام ١٩٤٧م .

* هاجر أهله بعد النكبة إلى مدينة إربد شمال الأردن واستقروا فيها.
* أنهى تعليمه الثانوي في مدرسة حسن كامل الصباح عام ١٩٦٦م .
* حصل على درجة الليسانس في اللغة العربية من جامعة بيروت العربية .
* حصل على الماجستير في الأدب العربي من جامعة اليرموك .
* حصل على شهادة الدكتوراة في الأدب العربي من الجامعة الأردنية عام ١٩٨٨م .
* عمل مدرسا في مدارس وزارة التربية والتعليم الأردنية ثم مدرسا في كلية حوارة وكلية تأهيل المعلمين العالية .
* عمل أستاذا ورئيسا لقسم اللغة العربية في جامعة إربد الأهلية.
* صدر له حوالي ١٧ كتابا في الشعر والرواية والنقد ومنها : دراسات في الفلكلور الأردني ، قراءات في الأدب الأردني ، طوبى للمتسلقين ، محاورات طه حسين ،حكايات جندب اليعربي ، حكايات حمدي الإربدي ، أوبريت صرخة القدس .
* الدكتور توفيق شخصية موسوعية فهو أكاديمي وقاص وروائي وشاعر وناقد .
* عضو رابطة الكتاب الأردنيين منذ تأسيسها .
* توفي في إربد عام ٢٠٢١ م .

حمه الله وغفر له.

